والجمهور من العلماء على أنّ أهل البلد إذا صاموا تسعةً وعشرين يومًا وفى البلد رجلٌ مريض لم يصم فإنّه يقضى تسعةً وعشرين يوماً[١] ويستحبّ له تعجيل القضاء لئلاّ تدركه المنيّة فيبقى عليه الفرض[٢] .

من أيّامٍ أُخَر : لم يَنْصَرِف أخر عند سيبويه لأنّها معدولةٌ عن الألف واللام ، نحو : الكُبَر والفُضَل . وقال الكسائىّ : هى معدولةٌ عن آخر كما تقول : حمراء وحمر فلذلك لم تنصرف . وقيل : منعت من الصّرف لانّها على وزن جُمَعَ . وهى صفةٌ لأيّام[٣] وصفة الجمع الّذى لا يعقل تارةً يعامل معاملة الواحدة المؤنّثة ، وتارةً يعامل معاملة جمع الواحدة المؤنّثة . فمن الأول : إلاّ أيّاماً معدودة . ومن الثّانى إلاّ أيّاماً معدودات . فمعدودات جمع لمعدودة . وأنت لا تقول : يوم معدودة إنّما تقول معدود ، لأنّه مذكر . لكن جاز ذلك فى جمعه وعدل عن أن توصف الأيّام بوصف الواحدة المؤنّث فكان يكون من أيّامٍ أخرى وإن كان جائزاً فصيحاً ، كالوصف بأخر لأنّه كان يُلْبس أن يكون صفةً لقوله : فعدّة لا يدرى أهو وصفٌ لعدّة أم لأيّام ، وذلك لخفاء الإعراب لكونه مقصوراً ، بخلاف أُخَر ، فإنّه نصٌّ فى أنه صفةٌ لأيّام لاختلاف إعرابه مع إعراب فعدّة[٤] .

وعلى الّذين يطيقونه : قراءة الجمهور بكسر الطّاء وسكون الياء . وأصله يطوقونه ، نقلت الكسرة إلى الطّاء وانقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها[٥] االطّاقة والطّوق : القدرة والاستطاعة . ويقال : طاق وأطاق كذا أى استطاعه وقدر عليه[٦] أى يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم[٧] عن ابن عبّاس قال : وعلى الّذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين قال : هم الّذين يتكلّفونه ولا يطيقونه ، الشّيخ والشّيخة[٨] ولابن القيّم فى طريق الهجرتين وباب السّعادتين اجتهادٌ لطيفٌ فى تقرير الفرق بين الطّاقة وبين الوسع . يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[٩] : « .... وأنّه سبحانه لم يكلّف عباده إلاّ وسعهم ،

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦٥٧
(٢) القرطبىّ ص ٦٥٩
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٥٧
(٤) البحر المحيط ٣٣/٢
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٢
(٦) البحر المحيط ٢٦/٢
(٧) الكشّاف ٢٥٥/١ وابن كثير ٢١٥/١ « يتجشّمونه » .
(٨) تفسير الطّبرىّ ٨١/٢
(٩) طريق الهجرتين وباب السّعادتين ص ١٦١

وهو دون طاقتهم . فقد يطيقون الشّىء ويضيق عليهم بخلاف وسعهم فإنّه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدْرهم عنه ، كما هو الواقع . وأنّه سبحانه لا يعاقب أحداً بغير فعله ، ولا يعاقبه على فعل غيره ، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله ، ولا على ما لا قدرة له على تركه . وأنّه حكيمٌ كريمٌ جوادٌ ماجدٌ محسنٌ ودودٌ صبورٌ شكور . يُطاع فيشكر ويُعْصَى فيغفر .... » .

فدية : جزاء . من قولك : فديت هذا بهذا أى جزيته به وأعطيته بدلاً منه[١] واختلف العلماء فى مقدار الفدية . فقال مالك : مدٌّ بمدّ النّبىّ ﷺ عن كلّ يومٍ أفطره . وبه قال الشّافعىّ وقال أبو حنيفة : كفّارة كلّ يومٍ صاعُ تمرٍ أو نصف صاع برّ . وروى عن ابن عبّاس نصف صاعٍ من حنطة . ذكره الدّارقطنى . وروى عن أبى هريرة قال : من أدركه الكبر فلم يستطع أن يصوم فعليه لكلّ يومٍ مدٌّ من قمح . وروى عن أنس بن مالك أنّه ضعف عن الصّوم عاماً فصنع جَفْنةً من طعامٍ ثمّ دعا بثلاثين مسكيناً فأشبعهم[٢] .

طعام مسكين : أى قدر ما يأكله فى يومه[٣] وقرأ ابن عبّاس : طعام مسكين بالإفراد فيما ذكر البخارى وأبو داود والنّسائى عن عطاء عنه . وهى قراءة حسنة لأنّها بيّنت الحكم فى اليوم واختارها أبو عبيد ، وهى قراءة أبى عمرو وحمزة والكِسائى . قال أبو عبيد : فبيّنت أنّ لكلّ يومٍ إطعام واحد[٤] وقرأه آخرون بجمع المساكين : فدية طعام مساكين . بمعنى : وعلى الّذين يطيقونه فديةٌ طعام مساكين عن الشّهر إذا أفطر الشّهر كله[٥] .

ومِمّا يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ففيهما خلافٌ كثيرٌ بين العلماء . فمنهم من قال : يفطران ويفديان ويقضيان . وقيل : يفديان فقط ولا قضاء . وقيل : يجب القضاء بلا فدية . وقيل : يفطران ولا فدية ولا قضاء[٦] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/٨٢
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٥
(٣) الجلالين
(٤) تفسير القرطبى ص ٦٦٣
(٥) تفسير الطّبرىّ ٢/٨٣
(٦) تفسير ابن كثير ١/٢١٥

فمن تطوع خيراً : فزاد على مقدار الفدية[١] قال ابن شهاب : من أراد الإطعام مع الصّوم . وقال مجاهد : من زاد فى الإطعام على المدّ . ابن عبّاس : فمن تطوّع خيراً . قال : مسكيناً آخر فهو خيرٌ له . ذكره الدارقطنى وقال : إسنادٌ صحيحٌ ثابت[٢] .

فهو خيرٌ له : فالتّطوع أخير له ، أو الخير[٣] وخير هنا صفة تفضيل[٤] .

وأن تصوموا خيرٌ لكم : أى والصّيام خيرٌ لكم[٥] .

هل الآية الكريمة منسوخة ؟

اختلف العلماء فى الآية الكريمة فقال فريقٌ منهم إنّها منسوخة ، وقال فريقٌ آخر إنّها ليست منسوخة . يقول ابن كثير[٦] فى الرّأى بالنّسخ : « قال معاذ رضى الله عنه : كان فى ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كلّ يومٍ مسكينا . وهكذا روى البخارىّ عن سلمة بن الأكوع أنّه قال : لمّا نزلت : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ ، كان من أراد أن يفطر يفتدى حتّى نزلت الآية الّتى بعدها فنسختها . وروى أيضاً من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : هى منسوخة . وقال السّدّىّ عن مرّة عن عبد الله قال : لمّا نزلت هذه الآية : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ قال يقول : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه ﴾ ، أى يتجشّمونه . قال عبد الله : فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً . ﴿ فمن تطوّع ﴾ ، يقول : أطعم مسكيناً آخر فهو خير له . ﴿ وأن تصوموا خيرٌ لكم ﴾ . فكانوا كذلك حتّى نسختها : ﴿ فمن شهد منكم الشّهر فليصمه ﴾ »[٧] .

وبشأن الرّأى الآخر القائل بعدم النّسخ جاء فى تفسير ابن كثير[٨] أيضاً : « وقال البخارىّ أيضاً : أخبرنا إسحاق حدّثنا روح حدّثنا زكريا بن إسحاق حدّثنا عمرو بن

---

(١) الكشّاف ١/٢٥٥
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٦
(٣) الكشّاف ١/٢٥٥
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٦
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٦
(٦) تفسير ابن كثير ١/٢١٥
(٧) انظر هنا مثلاً تفسير القرطبى ص ٦٦٤ وتفسير الطّبرىّ ٢/٧٧
(٨) ١/٢١٥

دينارٍ عن عطاء : سمع ابن عبّاس يقرأ : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين ﴾ . قال ابن عبّاس : ليست منسوخة . هو الشّيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كلّ يومٍ مسكينا . وهكذا رَوَى غير واحدٍ عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس نحوه . وقال أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا عبد الرّحيم بن سليمان عن أشعث ابن سوار عن عكرمة عن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين ﴾ . فى الشّيخ الكبير الّذى لا يطيق الصّوم ثمّ ضعف فرخّص له أن يطعم مكان كلّ يومٍ مسكينا »[1] وروى عن ابن عبّاس أيضاً أنّه قال لأمّ ولدٍ له ــ حبلى أو مرضع ــ أنت من الّذين لا يطيقون الصّيام ، عليك الجزاء ولا عليك القضاء . وهذا إسنادٌ صحيح[2] .

ويعلّق القرطبىّ على هذين الرّأيين[3] : « قلت : فقد ثبت بالأسانيد الصّحاح عن ابن عبّاس أنّ الآية ليست بمنسوخة وأنّها محكمة فى حقّ من ذكر . والقول الأوّل صحيحٌ أيضاً إلاّ أنّه يحتمل أن يكون النّسخ هناك بمعنى التّخصيص فكثيراً ما يطلق المتقدّمون النّسخ بمعناه . والله أعلم » .

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد كتب علينا الصّيام أيّاما معدودات بين التّسعة والعشرين يوماً إن كان الشّهر ناقصاً وبين الثّلاثين إن كان كاملاً . ولم يكتب الله سبحانه وتعالى الصّيام أشهراً معدوداتٍ أو متواليات . وهذا من مظاهر رحمته جلّ وعلا بعباده الّذين يريد بهم تعالى اليُسْرَ ولا يريد بهم العسر . ومع أنّ المقصود بالأيّام المعدودات شهر رمضان فنحن نتبيّن رحمة الله تعالى فى هذا التّعبير ذاته فنحن بصدد أيّام ، وفى ذلك تنبيه إلى وقت الصّيام ومدّته من الوقت الّذى يتبيّن فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر إلى اللّيل ، ونحن بصدد معدودات . فهذه الأيّام من القلّة للدّرجة الّتى تعدّ معها . إنّا وإن كنّا نصوم شهراً كاملاً فنحن إنّما نصوم نهاراً ونفطر ليلاً ، وإنّ

---

(١) انظر هنا تفسير الطّبرى ٨١/٢ وتفسير القرطبىّ ص ٦٦٤

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٥ (٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٥

فى العدول فى الآية الكريمة عن لفظة شهر إلى لفظة أيّام الموصوفة بأنّها معدودة تنبيهاً إلى رحمة الله تعالى بنا حينما أحلّ لنا ليلاً كلّ ما هو محرّمٌ علينا نهاراً من شهوتى البطن والفرج .

وإنّ كون الصّيام شهراً واحداً ، وأيّاماً معدودات ، باعثٌ لنا على أن نفكّر مليّاً فى رحمة الله تعالى بنا حينما فرض علينا أركان هذا الدّين مثلاً بعد الشّهادتين وفى موافقة هذه الأركان لوسع النّاس أجمعين فى حال الصّحّة ، وفى حال المرض على السّواء .

إنّ الصّلاة المفروضة خمسٌ وليست خمسين مثلاً كما كانت فى الأصل وإن كان ثوابها ثواب الخمسين؛لأنّ الحسنة بعشرة أمثالها . إنّ كلّ إنسانٍ لا يستطيع فقط أن يؤدّى هذه الصّلوات الخمس بكلّ يسرٍ وسهولة بل إنّه يتبيّن من توزيعها اللّطيف على ساعات اليوم واللّيلة الأربع والعشرين أنّها أقوى باعثٍ للهمم على القيام بكلّ عملٍ صالحٍ نافعٍ مفيد . إنّ صلاة الفجر مثلاً تعقب اللّيل الطّويل الّذى جعله الله تعالى لباساً والّذى لا تتخلّله صلاةٌ مفروضة وبالتّالى ينال الجسم حظّه الموفور من الرّاحة . وبعد أداء صلاة الفجر الّتى عبّرت عنها سورة الإسراء بقرآن الفجر حثًّا على صلاة الفجر وعلى تلاوة القرآن فى غير الصّلاة فجراً يأتى وقت العمل . ولا يتخلّل وقت العمل صلاةٌ مفروضة حتّى يحين وقت صلاة الظّهر الّذى يعقبه فى العادة راحة . وعقب الرّاحة تأتى صلاة العصر الّتى يعقبها عملٌ مفروضٌ أو مختار . وينتهى النّهار بغروب الشّمس وإقبال اللّيل . وعلى غرار صلاة الفجر الّتى يستقبل بها النّهار بعد اللّيل تكون صلاة المغرب الّتى يستقبل بها اللّيل بعد النّهار . وعلى غرار ابتداء اليوم بصلاة الفجر يختم اليوم بصلاة العشاء . وبهذا يبدأ المسلم يومه ويختمه بالصّلاة الّتى هى أحد أركان الإسلام والّتى هى عماد هذا الدّين . ووراء أداء العبد الصّلاة بشروطها فرضاً ونفلاً يظلّ لديه الوقت المتّسع الّذى يستطيع أن يقوم فيه إضافةً إلى أعبائه اليوميّة بالكثير من النّوافل . جاء فى سورة الإسراء[1] قوله تعالى : ﴿ أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق اللّيل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا . ومن اللّيل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محمودا ﴾ ويصحّ أن يفهم الدّلوك بأنّه بمعنى الغروب وعليه يكون الحديث هنا عن صلاة المغرب الّتى تكون بعد

---

(١) الآية ٧٨، ٧٩ .

غروب الشمس وعن صلاة العشاء الّتى تكون فى غسق اللّيل بمعنى سواد اللّيل وظلمته وعن صلاة الفجر الّتى عبّر عنها بقرآن الفجر . كما يصحّ أن يفهم الدّلوك بأنّه الزّوال من بدايته إلى نهايته ويشمل كلاً من صلاة الظّهر وصلاة العصر ، وعليه يشمل الغسق صلاة العشاء نهايةً وصلاة المغرب بداية . أمّا صلاة الفجر فهى مستقلّة وعبّر عنها بقرآن الفجر (١)

إنّ المسلم يقوم بفضل الله تعالى بأداء الصّلاة فرضها ونفلها فى كل يومٍ وليلةٍ بكلّ يسرٍ وسهولة لموافقتها من حيث العدد ومن حيث التّوقيت لاستعداد الإنسان وحاجة هذا الإنسان لأن يكون موصولاً دائماً وأبداً ببارئه جلّ وعلا وللصّلاة أكبر دورٍ فى تحقيق هذه الصّلة .

ومن البيّن أنّ الصّلاة المفروضة فى اليوم واللّيلة ، واليوم هو أصغر الوحدات الزّمنية ، يليها الأسبوع فالشّهر فالسّنة . ويبقى وراء ذلك العمر الكامل للإنسان بسنواته . وبشأن الصّلاة تصادفنا فى الوحدة الزّمنيّة التّالية ، أعنى الأسبوع ، صلاة الجمعة . وهى من ناحية تقوم مقام صلاة الظّهر ، وهى من ناحية أخرى تتضمّن خطبة الجمعة الّتى تعالج القضايا الّتى تهمّ المسلم ، وخلال هذا الأسبوع يصحّ أن تستجدّ أحداث وتتبلور قضايا إضافةً إلى حاجة المسلم إلى التّذكير الّذى تقوم به هذه الخطبة .

فإذا تجاوزنا دائرة الأسبوع إلى الدّائرة الّتى تليها دائرة الشّهر صادفنا شهر رمضان المبارك الّذى يصحّ أن ينظر إليه من زاوية الشّهر باعتبار الصّيام شهراً كاملاً ، ومن زاوية السّنة باعتباره شهراً واحداً فيها . وقد تجلّت رحمة الله تعالى فى جعل الصّيام نهاراً ، وهذا النّهار ذاته موافقٌ فى طوله لقدرة النّاس على الصّيام . وفى الأماكن القليلة الّتى لا يتّفق فيها طول النّهار مع القدرة وضع العلماء قواعد يسير وفقها الصّائمون انطلاقاً من إرادة الله تعالى اليسر بعباده لا العُسْر .

وإنّ للزّكاة علاقةً وثيقة بالدّائرة الأكبر دائرة السّنة فالنّقدان ، الذّهب والفضّة مثلاً ، إذا بلغا النّصاب وحال عليهما الحول وجبت فيهما الزّكاة وهذا من رحمته جلّ وعلا بكلّ

---

(١) درسنا هاتين الآيتين الكريمتين فى : تأمّلات فى سورة الإسراء ص ٢٥٧ فما بعدها .

من دافعى الزّكاة وآخذيها . إنّ المقدار الّذى يدفع زكاةً والدّورة الزّمنيّةً الكبيرة الّتى يجب دفعه إثرها موافق كلٌّ منهما لطبيعة الإنسان وحبّه الشّديد للمال وقد قال تعالى[1] : ﴿ إنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتّقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيُحْفِكُمْ تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ ويظلّ باب الصّدقات مفتوحاً لمن جادت نفسه بأكثر من الزّكاة المفروضة وفى كلّ وقت . وهذا كلّه من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده .

فإذا تحوّلنا إلى كبرى الدّوائر الزّمانيّة أعنى عمر الإنسان صادفنا الرّكن الخامس من أركان الإسلام ألا وهو الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام الّذى يمكن أن ينظر إليه من زاوية السّنة باعتباره يجىء مرّة واحدةً كلّ سنة ومن زاوية عمر الإنسان باعتباره يجب على المسلم مرّةً واحدةً فى العمر . وإنّما وجب الحجّ مرّةً واحدةً فى العمر بسبب المشاقّ الّتى ترتبط به . ويظلّ باب الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام وراء ذلك مفتوحاً تطوّعاً ، كما أنّ هنالك العمرة ، أعنى زيارة البيت العتيق . إنّ كلّ ذلك من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده .

وإنّ من مظاهر رحمة الله تعالى التّعبير عن صيام شهر رمضان فى الآية الكريمة بالقول : ﴿ إيّاماً معدودات ﴾ إنّ الأيّام قلائل فهى معدودة ، والمسلم وراء ذلك يصوم نهاراً فقط . وإنّ مظاهر رحمة الله تعالى تتوالى فى الآية الكريمة . فمع الجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّةٌ من أيّامٍ أخر ﴾ وتتحدّث الجزئيّة عن عذرين اثنين ، أحدهما اضطرارىّ وآخرهما اختيارىّ أو اضطرارىّ . وإنّ رحمة الله تعالى لتجمع فى نسقٍ بين هذين العذرين وإن كان ثانيهما يصحّ أن يكون اختياريّاً بسبب تحقّق المشقّة فيه كما تحقّقت فى العذر الأوّل ، شريطة أن يكون السّفر فى طاعة . ونحن نتبيّن تلميح الجزئيّة الكريمة بكون السّفر المقصود هنا فى المقام الأوّل هو السّفر الاختيارىّ لأنها تستعمل حرف الجرّ « على » الدّالّ على استعلاء المسافر على السّفر وذلك فى القول : ﴿ أو على سفر ﴾ وإذا كان ثمّة مراعاةٌ لسفر الاختيار باعتباره عذراً فمن باب الأولى

---

(١) سورة محمّد ٣٦ ، ٣٧

أن تكون هذه المراعاة من نصيب سفر الاضطرار . إنّ من كان مريضاً بحيث إنّ الصّيام يشقّ عليه ويؤذيه ، ومن كان على سفرٍ ، فقد أذن الله لكلٍّ منهما أن يفطر وأن يقضي . وفي الكلام حذفٌ تقديره : فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فأفطر فعليه عدّةٌ من أيّامٍ أخر . بمعنى أنّ عليه أن يصوم في حال الصّحّة وفي حال عدم السّفر وأن يقضي بعدد الأيّام الّتي أفطر فيها في أثناء شهر رمضان بسبب المرض أو السّفر . وإنّ من مظاهر رحمة الله تعالى أن يأذن جلّ وعلا بالإفطار في رمضان بسبب المرض ، خاصّة إذا كان المرض شديداً . وإنّ من مظاهر رحمة الله تعالى أن يأذن بالإفطار بسبب السّفر وإن كان السّفر اختياراً فكيف به إذا كان اضطراراً ، وإنّ من مظاهر رحمة الله تعالى كذلك أن تسوّي الآية الكريمة بين العذرين في الأخذ بعين الاعتبار على الرّغم من تقديم العذر الضروريّ ألا وهو المرض . ومن البيّن أنّ الحديث هنا عن عذرٍ طارئٍ على الصّائم فإذا زال العذر قضى ما أفطره من أيّام . فما العمل حينما تكون ثمّة صعوبةٌ دائمة ومشقّة مستمرّة في حال تجشّم الصّوم وذلك في حقّ المريض الّذي لا يرجى برؤه وفي حال الشّيخ والشّيخة الطّاعنين في السّنّ ومن إلى هؤلاء ؟ إنّ هذه الحال تتحدّث عنها الجزئية الكريمة التّالية : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين ، فمن تطوّع خيراً فهو خيرٌ له ﴾ .

تبيّن الجزئيّة الكريمة أنّ على الّذين يطيقون صيام رمضان فأفطروا فديةٌ وجزاءٌ طعام مسكينٍ واحدٍ مقابل إفطار كلّ يومٍ ، أي قدر ما يأكله المسكين في يومه وهو مدٌّ من غالب قوت البلد لكلّ يوم . ونحن نودّ أن نقف مليًّا عند جملة يطيقونه ففي ضوء فهم معنى هذه الجملة تتّضح أبعادٌ وأبعادٌ لرحمة الله تعالى . إنّ جملة يطيقونه في القول : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين ﴾ تفيد أنّ الّذين يستنفد صوم رمضان كلّ طاقتهم ويستهلك كلّ قواهم بحيث تكاد تساوي طاقتهم الكاملة المبذولة المستهلكة صيام نهار رمضان فلا يبقى لديهم فضلٌ من طاقة ولا بقيّة من وُسع من حقّهم أن يُفْطِروا وأن يقدّموا الفدية المتمثّلة في إطعام مسكينٍ واحد لأنّ ربّ العزّة البرّ الرّحيم بعباده لا يكلّف نفسا إلاّ وُسْعَها بحيث إنّها تقوم بما هو مطلوبٌ منها ويبقى لديها وراء ذلك بقيّةٌ من قوّة وفضلٌ من طاقة ، وهذا من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده . وإلى تكليف الله تعالى كلّ

نفسٍ بما تستطيع القيام به فى حدود وسعها وما آتاها جلّ وعلا بحيث إنّه لا يستهلك كلّ طاقتها أشارت آياتٌ كريمات . جاء فى سورة البقرة[١] قوله تعالى : ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاّ وُسْعَها ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسْعَها ﴾ وجاء فى سورة الأنعام[٣] قوله تعالى : ﴿ لا نُكلِّف نفساً إلاّ وُسْعَها ﴾ وجاء فى سورة المؤمنون[٤] قوله تعالى : ﴿ ولا نكلّف نَفْسًا إلاّ وُسْعها ﴾ وجاء فى سورة الطّلاق[٥] : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ ما آتاها سيجعل الله بعد عسرٍ يُسْراً ﴾ وبشأن التّكليف الّذى لا نطيق يرشدنا ربّ العزّة فى ختام سورة البقرة إلى كيفيّة دعائه عزّ وجلّ وذلك فى القول : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وبشأن الّذين آمنوا مع طالوت جاء التّعبير عن عجزهم وعدم طاقتهم بجالوت وجنوده فى قوله عزّ من قائل[٦] : ﴿ فلمّا جاوزه هو والّذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ .

إنّ ربّ العزّة لا يكلّفنا إلا ما هو فى وسعنا ، ويأمرنا بأن ندعوه بألاّ يحمّلنا جلّ وعلا ما لا طاقة لنا به . وبشأن صيام رمضان حينما يتجشّم الواحد منّا الصّوم وينستنفد كلّ طاقته يأذن ربّ العزّة لنا بأن نفطر وأن نفدى . ما أرأفه جلّ وعلا بعباده وما أشدّ رحمته بهم . وإنّ الفدية بفضل الله تعالى فى حدود طاقة الإنسان . ووراء ذلك فتحت الآية الكريمة باب الخير على مصراعيه لمن أراد أن يتطوّع خيراً بالزّيادة على القدر المذكور فى الفدية .

وتقرّر الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة ﴿ وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ تقرّر أنّ الصّوم خيرٌ لنا إن كنّا نعلم ثواب الصّيام وفوائده . وما أكثر الأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتى حثّت على الصّوم وبيّنت ثواب الصّائمين .

---

(١) الآية ٢٣٣ (٢) سورة البقرة ٢٨٦

(٣) الآية ١٥٢ وكذلك فى سورة الأعراف الآية ٤٢

(٤) الآية ٦٢ (٥) الآية ٧

(٦) سورة البقرة ٢٤٩ .

وهكذا يتبيّن تتابع رحمات الله تعالى فى الآية الكريمة . فالصّيام أيّامٌ معدوداتٌ وليست شهوراً مثلاً ، ومن كان مريضاً أو على سفر من حقّه أن يفطر ويقضى ، ومن كان يشقّ عليه الصّيام أفطر وأطعم عن كلّ يومٍ مسكيناً . « وممّا يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ففيهما خلافٌ كثير بين العلماء فمنهم من قال : يفطران ويفديان ويقضيان . وقيل : يفديان فقط ولا قضاء . وقيل : يجب القضاء بلا فدية . وقيل يفطران ولا فدية ولا قضاء »[1] ووراء ذلك أرشدت الآية الكريمة إلى الفضل ، فمن تطوّع خيراً بشأن الفدية فهو خيرٌ له ، وقرّرت أفضل الأمور للمستطيع ألا وهو الصّوم فإنّ فى الصّوم خيراً عميماً وثواباً جزيلا .

وبعد هذه الدّراسة المتأمّلة للآية الكريمة وتبيين الفئات الّتى تحدّثت عنها الآية الكريمة وهى فئات مختلفة ، ولها أحوالٌ مختلفة ، نستطيع بشأن نسخ الآية الكريمة وموقف العلماء المختلف بشأنه فمنهم من ذهب إلى كونها منسوخة نسخها القول فى الآية الكريمة التّالية : ﴿ فمن شهد منكم الشّهر فليصمه ﴾ ومنهم من ذهب إلى كون الآية الكريمة محكمة ، بعد هذه الدّراسة نستطيع أن نبيّن رأينا بشأن الآية الكريمة فنحن نميل إلى كون الآية الكريمة محكمة وليست منسوخة خاصّةً وقد تبيّن أبعاد جملة « يطيقونه » من القول : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين ﴾ فالمعنى وعلى الّذين يستنفد الصّوم كلّ طاقتهم فأفطروا فديةٌ طعام مسكين . ومن المعروف أنّ هذا الحكم قائم . والله أعلم .

الآيــة رقــم (١٨٥)

قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الّذى أنزل فيه القرآن هدًى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشّهر فليصمه . ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فَعِدّةٌ من أيّامٍ أُخَر ، يريد الله بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العُسْر ولتُكملوا العِدَّةَ ولتُكَبِّروا الله على ماهداكم ولعلّكم تشكرون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢١٥

شهر رمضان : الشّهر مصدر شهر الشّيء يشهره أظهره[١] فأصله من الشّهرة[٢] والإشهار ، لأنّه مشتهر لا يتعذّر علمه على أحدٍ يريده[٣] ولشهرته فى حاجة النّاس إليه فى المعاملات وغيرها من أمورهم[٤] فالشّهر مدّةٌ مشهورة[٥] وهو المدّة الزّمانيّة الّتى يكون مبدؤ الهلال فيها خافياً إلى أن يستسرّ ثمّ يطلع خافياً[٦] وقرأ جمهور النّاس شهر بالرّفع على أنّه خبر ابتداء مضمر أى ذلكم الشّهر أو المفترض عليكم صيامه شهر رمضان أو الصّوم أو الأيّام . ويجوز أن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره : الّذى أنزل فيه القرآن[٧] .

رمضان : علمٌ على شهر الصّوم . وهو علم جنس . ويجمع على رمضانات وأرمضه[٨] ورمضان لا ينصرف لأنّ النّون فيه زائدة[٩] ورمضان مأخوذٌ من رَمِضَ الصّائم يرمض إذا احترق جوفه من شدّة العطش . والرّمضاء ممدودة شدّة الحرّ[١٠] يقال : أرْمَضَتْه الشّمس فَرَمِض أى أحرقته الرّمضاء وهى شدّة حرّ الشّمس[١١] ومنه الحديث : صلاة الأوّابين إذا رَمِضَتِ الفصال . خرّجه مسلم[١٢] ورمض الفصال أن تحرق الرّمضاء أخفافها فتبرك من شدّة حرّها[١٣] وتنزوى إلى ظلّ أمّهاتها[١٤] فرمضان فيما ذكروا وافق شدّة الحرّ ، فهو مأخوذٌ من الرّمضاء . يقال : إنّهم لمّا نقلوا أسماء الشّهور عن اللّغة القديمة سمّوها بالأزمنة الّتى وقعت فيها ، فوافق هذا الشّهر أيّام رمضاء الحرّ فسمّى بذلك . وقيل : إنّما سمّى رمضان لأنّه يرمض الذّنوب أى يحرقها بالأعمال الصّالحة من الإرماض وهو الإحراق . ومنه رمضت قدمه من الرّمضاء أى احترقت .

---

(١) البحر المحيط ٢٦/٢
(٢) تفسير الطّبرى ٨٤/٢
(٣) تفسير القرطبّى ص ٦٦٦
(٤) البحر المحيط ٢٦/٢
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانّى ص ٢٦٩
(٦) البحر المحيط ٢٦/٢
(٧) تفسير القرطبّى ص ٦٧٢
(٨) البحر المحيط ٢٦/٢
(٩) تفسير القرطبّى ص ٦٧٢
(١٠) تفسير القرطبّى ص ٦٦٦
(١١) مفردات الرّاغب الأصفهانّى ص ٢٠٣
(١٢) هى الصّلاة الّتى سنّها رسول الله ﷺ فى وقت الضّحى .
(١٣) تفسير القرطبّى ص ٦٦٦
(١٤) البحر المحيط ٢٦/٢

وأرمضّتنى الرّمضاء أى أحرقتنى ، ومنه قيل : أرمضنى الأمر[١] .

الّذى أنزل فيه القرآن : نصٌّ فى أنّ القرآن نزل فى شهر رمضان وهو يبيّن قوله عزّ وجلّ : ﴿ حم . والكتاب المبين . إنّا أنزلناه فى ليلةٍ مباركة ﴾ . يعنى ليلة القدر ولقوله : ﴿ إنّا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ . وفى هذا دليلٌ على أنّ ليلة القدر إنّما تكون فى رمضان لا فى غيره[٢] عن ابن عبّاس قال : أنزل القرآن جملةً من الذّكر فى ليلة أربع وعشرين من رمضان فجعل فى بيت العزّة[٣] والمراد بالذّكر هنا اللّوح المحفوظ[٤] وبيت العزّة فى سماء الدّنيا ، ثمّ كان جبريل عليه السلام ينزل به نجماً نجماً فى الأوامر والنّواهى والأسباب وذلك فى عشرين سنة[٥] وقيل الإنزال هنا هو على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون القرآن ممّا عبّر بكلّه عن بعضه . والمعنى : بدىء بإنزاله فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك فى الرّابع والعشرين من رمضان[٦] وقد روى بأنّ رمضان هو الشّهر الّذى كانت الكتب الإلٰهيّة تنزل فيه على الأنبياء[٧] وقد نزلت الكتب السّماويّة السّابقة كلّها على الأنبياء الّذين أنزلت عليهم جملةً واحدة[٨] .

القرآن : اسمٌ لكلام الله تعالى وهو بمعنى المقروء كالمشروب يسمّى شراباً ، والمكتوب يسمّى كتاباً . وعلى هذا قيل : هو مصدر قرأ يقرأ قراءةً وقرآناً بمعنًى . قال الشاعر :

ضَحَّوا بأشمط عنوان السّجود به ... يقطّع اللّيل تسبيحاً وقرآنا

أى قراءة . ويسمّى المقروء قرآنا على عادة العرب فى تسميتها المفعول باسم المصدر كتسميتهم للمعلوم علماً وللمضروب ضرباً وللمشروب شرباً . ثمّ اشتهر الاستعمال فى هذا واقترن به العرف الشّرعىّ . فصار القرآن اسمًا لكلام الله[٩] وعلماً على ذلك ،

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٧ وانظر الكشّاف ١/٢٥٥ والبحر المحيط ٢/٢٦ وتفسير الطّبرىّ ٢/٨٤ .
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٣
(٣) تفسير الطّبرىّ ٢/٨٤
(٤) انظر تفسير القرطبىّ ص ٦٧٣
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٣
(٦) انظر البحر المحيط ٢/٣٩
(٧) تفسير ابن كثير ١/٢١٥ وتفسير الطّبرىّ ٢/٨٤
(٨) تفسير ابن كثير ١/٢١٦
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٤

وأطلق على ما بين الدّفّتين من كلام الله عزّ وجلّ[١] والقراءة ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعضٍ فى التّرتيل[٢] « قال بعض العلماء : تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه بل لجَمْعِهِ ثَمَرَة جميع العلوم كما أشار تعالى إليه بقوله : ﴿ وتفصيل كلّ شيء ﴾ . وقوله : ﴿ تبياناً لكلّ شيء . قرآناً عربيّاً غير ذى عوج ﴾ »[٣] .

هدًى للنّاس : رشاداً للنّاس إلى سبيل الحقّ وقصد المنهج[٤] وهو مصدر وضع موضع اسم الفاعل ، أى هادياً للنّاس[٥] فهو فى موضع نصب على الحال من القرآن[٦] .

وبيّناتٍ من الهدى والفرقان : أى ودلائل وحجج بيّنة واضحة جليّة لمن فهمها وتدبّرها دالّة على صحّة ما جاء به من الهدى المنافى للضّلال ، والرّشد المخالف للغىّ ومفرّقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام[٧] وعطف قوله : وبيّناتٍ على هدى فهو حالٌ أيضاً وهى لازمة لأنّ كون القرآن آياتٍ جلّياتٍ واضحاتٍ وصفٌ ثابتٌ له . وهو من عطف الخاصّ على العام لأنّ الهدى منه خفىّ ومنه جلىّ . فنصّ بالبيّنات على الجلىّ من الهدى لأنّ القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه والنّاسخ والمنسوخ فذكر أشرف أنواعه وهو الّذى يتبيّن منه الحلال والحرام والموعظة[٨] والفرائض وحدود الله[٩] وبيّنات جمع بيّنة من بان الشّىء يبين إذا وضح[١٠] .

والفرقان : ما فرق بين الحقّ والباطل أى فصل[١١] .

فمن شهد منكم الشّهر فليصمه : الظّاهر أنّ من شرطيّة ويجوز أن تكون

---

(١) البحر المحيط ٢٦/٢
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٤٠٢
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٤٠٢
(٤) تفسير الطّبرىّ ٨٥/٢
(٥) البحر المحيط ٤٠/٢
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٤
(٧) تفسير ابن كثير ٢١٦/١
(٨) انظر البحر المحيط ٤٠/٢ وتفسير القرطبىّ ص ٦٧٥
(٩) انظر تفسير الطّبرىّ ٨٥/٢
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٥
(١١) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٥ وتفسير الطّبرىّ ٨٥/٢

موصولة[١] وشهد بمعنى حضر[٢] وفيه إضمار ، أى من شهد منكم المصر فى الشّهر عاقلاً بالغاً صحيحاً مقيماً فليصمه[٣] وأعيد ذكر الشهر تعظيماً كقوله تعالى : ﴿ الحاقّة ماالحاقّة ﴾[٤] وليس الشّهر بمفعول وإنّما هو ظرف زمان[٥] والألف واللاّم فى الشّهر للعهد ويعنى به شهر رمضان ولذلك ينوب عنه الضّمير[٦] .

ومن كان مريضاً أو على سفر : كرّر لئلاّ يتوهّم نسخه بتعميم من شهد[٧] والسّفر مأخوذٌ من قولهم : سفرت المرأة إذا ألقت خمارها والمصدر السّفور . قال الشّاعر :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت ... فقد رابنى منها الغداةَ سفورُها

وتقول : سفر الرّجل ألقى عمامته . وأسفر الوجه والصّبح أضاء . الأزهرىّ : سمّى مسافراً لكشف قناع الكنّ عن وجهه وبروزه للأرض الفضاء . والسِّفر من الكتب واحد الأسفار لأنّه يكشف عمّا تضمّنه[٨] .

فعدةٌ من أيّامٍ أخر : أخر جمع أخرى ، مثل كبرى وكبر وقُرْبى وقُرَب[٩] والمعنى : ومن كان مريضاً أو على سفر فأفطر برخصة الله فعليه صوم عدّة أيّامٍ أخر مكان الأيّام الّتى أفطر فى سفره أو مرضه[١٠] .

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر : عن ابن عبّاس قال : اليُسْر الإفطار فى السّفر والعسر الصّيام فى السفر[١١] والعسر : الصّعوبة والضّيق : ومنه : أعسر إعساراً . وذو عسرةٍ أى ضيق[١٢] والوجه عموم اللّفظ فى جميع أمور الدّين كما قال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدّين من حرج ﴾ . وروى عن النّبىّ ﷺ : دين الله

---

(١) البحر المحيط ٢/٤١

(٢) تفسيرالقرطبى ص ٦٧٥ والبحر المحيط ٢/٤١ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٥ وتفسير ابن كثير ١/٢١٦

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٦٦٧ والبحر المحيط ٢/٤١ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٥ والكشّاف ١/٢٥٦

(٦) البحر المحيط ٢/٤١

(٧) الجلالين .

(٨) البحر المحيط ٢/٢٧

(٩) تفسير الطّبرىّ ٢/٨٨

(١٠) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٠

(١١) تفسير الطّبرىّ ٢/٩١

(١٢) البحر المحيط ٢/٢٧

يُسْر . وقال ﷺ : يسّروا ولا تعسّروا . واليُسْر من السّهولة . ومنه اليسار للغنىّ . وسمّيت اليد اليُسْرى تفاؤلاً ، أو لأنّه يسهل له الأمر بمعاونتها لليمنى . قولان[١] وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : يسّروا ولا تعسّروا وسكّنوا ولا تنفّروا . أخرجاه فى الصّحيحين . وفى الصّحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما إلى اليمن : بشّرا ولا تنفّرا ، ويسّرا ولا تعسّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا . وفى السّنن والمسانيد أنّ رسول الله ﷺ قال : بعثت بالحنيفيّة السّمحة[٢] وما خيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما . وفى القرآن : ﴿ ما جعل عليكم فى الدّين من حرج ﴾ ﴿ يضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم ﴾ . فيندرج فى العموم فى اليسر فطر المريض والمسافر[٣] .

ولتكملوا العدّة بالتّخفيف والتّشديد[٤] وفيه تأويلان . أحدهما إكمال عدّة الأداء لمن أفطر فى سفره أو مرضه . الثّانى : عدّة الهلال سواء كانت تسعاً وعشرين أو ثلاثين . قال جابر بن عبد الله قال النّبىّ ﷺ : إنّ الشّهر يكون تسعاً وعشرين[٥] والألف واللاّم الظّاهر أنّها للعهد فيكون ذلك راجعاً إلى قوله : ﴿ فعدّةٌ من أيّامٍ أخر ﴾ . أى وليكمل من أفطر فى مرضه أو سفره عدّة الأيّام الّتى أفطر فيها بأن يصوم مثلها[٦] .

ولتكبّروا الله : عطفٌ عليه ومعناه الحضّ على التّكبير فى آخر رمضان فى قول جمهور أهل التّأويل[٧] أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ وقال : ﴿ فإذا قضيت الصّلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ وقال : ﴿ فسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل الغروب . ومن اللّيل فسبّحه وأدبار السّجود ﴾ . ولهذا جاءت السّنّة باستحباب التّسبيح والتّحميد والتّكبير بعد الصّلوات

---

(١) تفسير القرطبى ص ٦٧٧ (٢) تفسير ابن كثير ١/٢١٧

(٣) البحر المحيط ٢/٤٢

(٤) الجلالين أى ولتكملوا ولتكمّلوا بتخفيف الميم وتشديدها .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٦٧٨ (٦) البحر المحيط ٢/٤٣

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٦٨٢

المكتوبات[١] وذهب داود بن على الأصبهانىّ الظّاهرىّ إلى وجوب التّكبير فى عيد الفطر الظّاهر الأمر فى قوله : ولتكبّروا الله على ما هداكم . وفى مقابلته مذهب أبى حنيفة رحمه الله أنّه لا يشرع التّكبير فى عيد الفطر . والباقون على استحبابه على اختلاف فى تفاصيل بعض الفروع بينهم[٢] ولفظ التّكبير عند مالك وجماعةٍ من العلماء : الله أكبر الله أكبر الله أكبر ثلاثاً ، وروى عن جابر بن عبد الله . ومن العلماء من يكبّر ويهلّل ويسبّح أثناء التّكبير . ومنهم من يقول : الله أكبر كبيرا . والحمد لله كثيراً . وسبحان الله بكرةً وأصيلاً[٣] ويقول أبو حيّان[٤] : « ومعنى التّكبير هنا تعظيم الله والثّناء عليه . فلا يختصّ ذلك بلفظ التّكبير بل يعظّم الله ويثنى عليه بما شاء من ألفاظ الثّناء والتّعظيم » .

على ما هداكم : على تتعلّق بتكبّر وا . وفيها إشعارٌ بالعلية كما تقول : أشكرك على ما أسديت لى[٥] وإنّما عدّى فعل التّكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمّناً معنى الحمد كأنّه قيل : ولتكبّروا الله حامدين على ما هداكم[٦] والظّاهر فى ما أنّها مصدريّة أى على هدايتكم[٧] .

ولعلّكم تشكرون : لعلّ فى هذا الموضع بمعنى كى ولذلك عطف به على قوله : ﴿ ولتكملوا العدّة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلّكم تشكرون ﴾[٨] .

هذه هى الآية الكريمة الثّالثة من آيات الصّيام . وقد تحدّثت الآية الكريمة الأولى عن الصّيام الّذى كتبه الله تعالى على المؤمنين كما كتبه جلّ وعلا على السّابقين . وتحدّثت الآية الكريمة الثّانية عن عددٍ من مظاهر رحمته جلّ وعلا بعباده . فالصّيام أيّامٌ معدوداتٌ وليس شهوراً . والمريض والمسافر يفطران ويقضيان بعد أن يبرأ المريض ويستقرّ المسافر . وعلى الّذى يطيق الصّوم بجهدٍ ومشقة ويفطر فديةٌ طعام مسكين ، فمن تطوّع خيراً فزاد فى الفدية فالتّطوّع خيرٌ له . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الصّوم هو الخير وهو الأفضل إن

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢١٧
(٢) تفسير ابن كثير ١/٢١٨
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٨٣
(٤) البحر المحيط ٢/٤٤
(٥) البحر المحيط ٢/٤٤
(٦) الكشّاف ١/٢٥٦
(٧) البحر المحيط ٢/٤٤
(٨) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٢

كنّا نعلم فضل الصّوم وثوابه . وهذه الآية الكريمة الثّالثة تتحدّث عن الصّيام من جوانب أخر منها الجديد ومنها القديم الجديد .

وأوّل ما يصادفنا فى الآية الكريمة القول . ﴿ شهر رمضان الّذى أنزل فيه القرآن هدًى للنّاس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ وأوّل ما يملأ آذاننا روعةً وأنفسنا بهجةً ظاهرة التّلاؤم الصّوتىّ فى الألفاظ الثّلاثة « رمضان » « القرآن » « الفرقان » ووراء ذلك يمكن أن ينظر إلى الجزئيّة الكريمة من زوايا أربع هى ﴿ شهر رمضان ﴾ ﴿ الّذى أنزل فيه القرآن ﴾ ﴿ هدًى للنّاس ﴾ ﴿ وبيّناتٍ من الهدى والفرقان ﴾ وفى الإمكان الوقوف عند كلٍّ من هذه الزّوايا الأربع على حدة فمع الزّاوية الأولى .

بتأمّل القول : ﴿ شهر رمضان ﴾ يتبيّن من مجىء لفظة شهر إثر مجىء القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ أياماً معدودات ﴾ يتبيّن مظهرٌ من مظاهر رحمة الله تعالى بنا فى تدرّج التّعبير بنا ونقله اللّطيف لنا من الأيّام المعدودات الّتى تكون تسعةً وعشرين يوماً وتكون ثلاثين يوماً إلى الشّهر . ووراء ذلك يأتى لفظ الشّهر مقروناً بلفظ رمضان . فإذا تبيّن ما خصّ الله تعالى به هذا الشّهر الكريم من فضل ومنها كونه شهر القرآن ، وإذا تبيّن أنّ شهر رمضان هو الشّهر الوحيد الّذى جاء ذكره بصريح اللّفظ فى القرآن الكريم أدركنا من ناحيةٍ الإضافة المعنويّة الّتى تقدّمها لفظة شهر ، ولطف تقديم هذه الإضافة وجمال وقعها على كلّ نفسٍ ، وأدركنا من ناحيةٍ أخرى كمال فضل الله تعالى علينا فى كون الأيّام المعدودات ليست أشهراً معدودات يشقّ على النّاس صيامها وقيامها ، وفى كون الأيّام المعدودات ليست أقلّ من شهر كى تنعم كلّ نفسٍ صائمةٍ بظلّ هذا الشّهر الكريم ، الوارف الظّليل ، وكى تمتلىء كلّ روحٍ بشفافية السّعى فى محاولة التّعرّض لنفحات البرّ الرّحيم فى نهار هذا الشّهر الكريم الّذى يمتنع فيه الصّائم إرضاءً لبارئه الكريم من كل لذّةٍ محسوسةٍ ونعيم ، إيثاراً للّذةِ الكبرى الخالدة فى جنّات النّعيم ، وفى محاولة التّعرّض لنفحات البرّ الرّحيم فى اللّيل البهيم الّذى تتجافى فيه جنوب القائمين عن المضاجع ، مرتّلين للقرآن الكريم راكعين ساجدين ، تائبين مستغفرين ، داعين قانتين .

إنّ من مظاهر رحمة تعالى وفضله أن كان الصّيام أيّاماً معدوداتٍ لأن الله سبحانه

وتعالى يريد اليسر بعباده . وإنّ من مظاهر فضل الله تعالى ورحمته أن كانت أيّام الصّيام شهراً ، فلعلّ النّفوس العطاش أن ترتوى من عذبه ، ولعلّ الأرواح أن تتضلّع من نميره ، ولعلّ القلوب الّتى شفّها الوجد والأفئدة الّتى تهوى إليه وتهفو أن ترتدّ بانقضاء شهر الصّوم — وهيهات — وقد أطفأت غلّة وشفت علّة .

فإذا تحوّلنا إلى تأمل القول : ﴿ الّذى أنزل فيه القرآن ﴾ تبيّنّا أنّا أمام الكثير من مظاهر الجلال والكمال والجمال . وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّنا بصدد شهر رمضان وبصدد القرآن الكريم الّذى أنزل فى هذا الشّهر الكريم شهر القرآن . وفى الإمكان النّظر إلى هذا القول من زاوية نزول القرآن الكريم وقد جاءت الإشارة إلى هذا هنا فى صيغة المبنى للمجهول « أُنْزِل » وفى ذلك تعيينٌ لمصدر القرآن الكريم وتحديد . إنّه السّماوات العلى . وإلى كون القرآن الكريم تنزيل ربّ العالمين وكونه كلام ربّ العالمين أشار مثل قوله تعالى[١] : ﴿ وإنّه لتنزيل ربّ العالمين . نزل به الرّوح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسانٍ عربيّ مبين ﴾ .

وسواءٌ فهمنا من إنزال القرآن الكريم نزوله من اللّوح المحفوظ فى السّماوات العلى إلى سماء الدّنيا جملةً واحدةً فى بيت العزّة على نحو ما روى عن ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما ، ثمّ نزوله بعد ذلك منجّماً حسب الوقائع والمقتضيات على المصطفى ﷺ فى ثلاثٍ وعشرين سنة ، أو فهمنا من إنزال القرآن الكريم ابتداء نزوله على المصطفى ﷺ وقد أوضح محمود باشا الفلكى رحمه الله تعالى رحمةً واسعة أنّه تبيّن بعد دقّة البحث أنّ ذلك كان فى السّابع عشر من رمضان سنة ثلاث عشرة قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو سنة ٦١٠م[٢] سواءٌ فهمنا هذا أو ذاك فإنّ كلاًّ من النّزولين مرتبطٌ بشهر رمضان المبارك وفى اللّيلة المباركة من هذا الشّهر المبارك الكريم ألا وهى ليلة القدر . قال تعالى[٣] : ﴿ حم . والكتاب المبين . إنّا أنزلناه فى ليلةٍ مباركة ، إنّا كنّا منذرين . فيها يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ

---

(١) سورة الشّعراء ١٩٢ — ١٩٥

(٢) نور اليقين فى سيرة سيّد المرسلين للشيخ محمّد الخضرىّ ص ٣١

(٣) سورة الدّخان ١ — ٩

حكيم . أمراً من عندنا ، إنّا كنّا مرسلين . رحمةً من ربّك إنّه هو السّميع العليم . ربّ السّماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إلٰه إلاّ هو يحيى ويميت ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين . بل هم فى شكٍّ يلعبون ﴾ وقال تعالى[١] : ﴿ إنّا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خيرٌ من ألفِ شهر . تنزّل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر . سلامٌ هى حتّى مطلع الفجر ﴾ . ويا له من شرفٍ عظيم حظى به هذا الشّهر الكريم بنزول القرآن الكريم فى ليلة القدر منه .

ونصادف فى الجزئيّة الكريمة لفظ القرآن : ﴿ شهر رمضان الّذى أنزل فيه القرآن ﴾ ليس محقّقاً فقط ظاهرة تلاؤم الأصوات وهى حليةٌ صوتيةٌ لها جمال الوقع فى الآذان ولطف الانسياب إلى النّفوس ، بل ومحقّقاً لمعنًى رصين ومغزًى عميق ، وتفسير ذلك أنّ للفظى القرآن والكتاب من بين أسماء القرآن الكريم الكثيرة من كثرة الدّوران ما ليس لغيرهما . وبالمقارنة بين استعمالات القرآن الكريم لهذين اللّفظين يتبيّن أنّ لفظ قرآن ينفرد بكونه استعمل فى كلّ المواضع السّبعين الّتى ورد فيها فى القرآن الكريم بمعنى القرآن الكريم أو متعلّقاً بالقرآن الكريم وحده . ولا تشذّ هذه القاعدة فى أىّ موضعٍ من المواضع السّبعين . فإذا تحولنا إلى لفظ الكتاب تبيّنّا أنّه من المشترك اللّفظى ، فكما أنّه يطلق على القرآن الكريم يطلق كذلك على سائر الكتب السّماويّة السّابقة . ونستطيع أن نفهم من مجىء لفظ القرآن ذى العلاقة بالقراءة وجوب عناية المسلمين بهذا الكتاب العزيز تلاوةً وحفظاً وتدبّراً وترجمةً لتعاليمه إلى عمل . وإنّ فى الإمكان الوقوف عند بعض صفات القرآن الكريم وخصائصه كما بيّنها الكتاب العزيز ذاته . إنّ هذا الكتاب العزيز هو الكتاب السّماوىّ الوحيد الّذى تكفّل الله تعالى بحفظه لأنّه أشرف الكتب السّماويّة وآخرها ، ولأنّه معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة . قال تعالى[٢] : ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ وهذا القرآن الكريم قد يسّره ربّ العزة للذّكر . قال تعالى[٣] : ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر ﴾ وقد تحدّى الله سبحانه وتعالى بهذا

---

(١) سورة القدر ١ — ٥ (٢) سورة الحِجْر ٩

(٣) سورة القمر ١٧

الكتاب العزيز الإنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا الكتاب العزيز . قال تعالى[١] : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيرا ﴾ وجاء خطاباً للعرب بعامةً ، القرشيّين بخاصّة قوله تعالى[٢] : ﴿ أم يقولون تقوّله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين ﴾ كما تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات . قال تعالى[٣] : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وأن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثله أو من مثله . قال تعالى[٤] : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿ وإن كنتم فى ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . ولم يكن التّحدّى بالكتب السّماويّة السّابقة لأنّ معجزات أولئك النّبيّين كانت فى آيات الله تعالى المادّيّة المحسوسة الّتى آتاهم جلّ وعلا إيّاها وليست فى تلك الكتب السّماويّة الموحاة إليهم . وهذا الكتاب العزيز مهيمنٌ على الكتب السّماوية السّابقة . قال تعالى[٦] : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم ، وإنّ أمّته ﷺ مندرجةٌ فى ذلك الأمر ، بأن يستمسك بالقرآن الكريم ، وبيّن الحقّ جلّ وعلا أنّ فى هذا الكتاب العزيز شرف المسلمين ومجدهم وسؤددهم ، وبقدر استمساكهم به يكون عزّهم . قال تعالى[٧] : ﴿ فاستمسك بالّذى أوحى إليك ، إنّك على صراطٍ مستقيم . وإنّه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ وقال تعالى[٨] : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ وإنّ المسلمين لو هجروا القرآن الكريم — لا سمح الله — فإنّ المصطفى ﷺ سيشكوهم إلى البارئ جلّ وعلا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم .

---

(١) سورة الإسراء ٨٨
(٢) سورة الطّور ٣٣ ، ٣٤
(٣) سورة هود ١٣
(٤) سورة يونس ٣٨
(٥) سورة البقرة ٢٣
(٦) سورة المائدة ٤٨
(٧) سورة الزّخرف ٤٣ ، ٤٤
(٨) سورة الأنبياء ١٠

قال تعالى[١] ﴿ وقال الرّسول يا ربّ إنّ قومى اتّخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ .

وينبغى أن يكون حظّ شهر رمضان الكريم من القرآن العظيم قراءةً فى الصّلاة وفى غير الصّلاة وتدبّراً وتطبيقاً لتعاليمه هو الموفور .

فإذا تحوّلنا إلى تأمّل القول : ﴿ هدىً للنّاس ﴾ تبيّن أنّا بحاجةٍ إلى أن نقف عند كلّ من اللّفظين . وبالنّسبة للفظ « هدى » يتبيّن أنّه يعيّن الهدف الأسمى لإنزال القرآن الكريم ، ألا وهو الهداية إلى الطّريقة الّتى هى أقوم والإرشاد إلى سبيل الحقّ وقصد المنهج . وقد قال تعالى[٢] : ﴿ إنّ هذا القرآن يهْدى للّتى هى أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيرا . وأنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما ﴾ وتذكر الجزئيّة الكريمة لفظ النّاس بالذّات ولا تستعمل أىّ لفظٍ آخر ، فهذا الكتاب العزيز هدىً للنّاس كلّ النّاس ، المؤمن منهم وغير المؤمن ، أمّا المؤمن فإنّه يصح فى حقّه قوله تعالى[٣] : ﴿ والّذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ وأمّا غير المؤمن فإنّه يتبيّن فى القرآن الكريم النّور المبين والصراط المستقيم . قال تعالى[٤] : ﴿ يا أيّها النّاس قد جاءتكم موعظة من ربّكم وشفاءٌ لما فى الصّدور وهدًى ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿ يا أيّها النّاس قد جاءكم الرّسول بالحقّ من ربّكم فآمنوا خيراً لكم . وإن تكفروا فإنّ لله ما فى السّماوات والأرض وكان الله عليماً حكيما ﴾ وقال تعالى[٦] : ﴿ يا أيّها النّاس قد جاءكم برهانٌ من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا . فأمّا الّذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطاً مستقيما ﴾ وقال تعالى[٧] : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتابٌ مبين . يهدى به الله من اتّبع رضوانه سُبُلَ السّلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾ . وكما أنّ القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة هو وراء ذلك

---

(١) سورة الفرقان ٣٠
(٢) سورة الإسراء ٩ ، ١٠
(٣) سورة محمّد ١٧
(٤) سورة يونس ٥٧
(٥) سورة النّساء ١٧٠
(٦) سورة النّساء ١٧٤ ، ١٧٥
(٧) سورة المائدة ١٥ — ١٦

جيش المصطفى ﷺ الأكبر وسلاحه الأشهر . قال تعالى[١] : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قريةٍ نذيرا . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ . أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيد . ألا إنّهم فى مريةٍ من لقاء ربّهم ، ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجْرٍ وما أنا من المتكلّفين . إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين . ولتعلمنّ نبأه بعد حين ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى تأمّل القول : ﴿ وبيّناتٍ من الهدى والفرقان ﴾ المعطوف على القول السّابق : ﴿ هدى للنّاس ﴾ استطعنا أن نتبيّن أنّنا بصدد نوعٍ خاصٍّ من الهدى بعد النّوع العامّ فى القول السّابق : ﴿ هدًى للنّاس ﴾ وهذا النّوع الخاصّ من الهدى مقترنٌ هو والفرقان بالبيّنات . ونستطيع أن نفهم البيّنات وهى جمع بيّنة من بان الشّىء إذا وضح بأنّها الدّلائل الواضحة والحجج الجليّة والآيات البيّنات الّتى تؤدّى إلى الهدى وتبعد عن الضّلالة وتفرق بين الحقّ والباطل وتفصل بين الحلال والحرام وترشد إلى الطّريقة الّتى هى أقوم وذلك على غرار الهداية إلى وجوب الصّوم وجواز الفطر وكيفيّة القضاء ، وإلى هذا الطّرف من الهداية أشارت الآية الكريمة فى القول : ﴿ ولتكبّروا الله على ما هداكم ﴾ .

وإنّ على من شهد من المسلمين الشّهر وحضر المصر عاقلاً بالغاً صحيحاً مقيماً فليصمه . قال تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشّهر فليصمه ﴾ ومن البيّن أنّنا بصدد مجىء لفظ الشّهر للمرّة الثّانية فى الآية الكريمة بصريح اللّفظ ، دليلاً على علوّ شأن الشّهر ورفيع منزلته وتنويهاً بشأنه ومكانته ، كما أنّنا بصدد أمرٍ صارم بصيام الشّهر وذلك بعد التّنبيه فى الآية الكريمة السّابقة إلى كون الصّيام خيراً لنا لو كنّا نعلم ثواب الصّيام وفوائده .

---

(١) سورة الفرقان ٥١ ، ٥٢
(٢) سورة العنكبوت ٦٩
(٣) سورة فصّلت ٥٣ ، ٥٤
(٤) سورة ص ٨٦ — ٨٨

وبما أنّنا فى القول : ﴿ فمن شهد منكم الشّهر فليصمه ﴾ بصدد أمرٍ حازمٍ بوجوب الصّوم ، بينما جاء فى الآية الكريمة السّابقة التّخفيف من الله تعالى على المريض والمسافر وعلى الّذى يطيق الصّوم بجهدٍ ومشقّة ، ولمّا كان هذا الأمر الحازم الحاسم الصّارم مظنّة أن ينسخ ما قبله من حكم ، فقد كان فى الآية الكريمة عودةٌ إلى الحديث عن المريض والمسافر وذلك فى القول : ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيّامٍ أخر ﴾ فتبيّن أنّ الحكم السّابق لم ينسخ . وحينما يتبيّن أنّ من الّذين يطيقون الصّوم بجهدٍ ومشقّة المريض الّذى يفدى ولا يقضى ، وحينما يتبيّن أنّ الآية الكريمة أكّدت الحكم فى حقّ المريض الّذى عليه القضاء بعد البرء ، فإنّ فى تأكيد الحكم فى حقّ المريض الّذى يرجى برؤه تأكيداً ضمنيّاً للحكم فى حقّ المريض الّذى لا يُرجى برؤه وهذا من باب الأَوْلى والأَحْرى . وبالمقارنة بين القول هنا : ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيّامٍ أخر ﴾ وبين القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيّامٍ أخر ﴾ يتبيّن أنّ الابتداء هنا بواو العطف بينما الابتداء هنالك بفاء العطف . وواو العطف لا تفيد ترتّب ما بعدها على ما قبلها بعكس الفاء ، ونحن هنا أمام تقرير حكمٍ سابقٍ وتأكيده . ولم يجىء هنا الجارّ والمجرور « منكم » لأنّ المخاطبين هنا هم المخاطبون هنالك .

والجزئيّة الكريمة الأخيرة تتألّف من أربعة أقسام . قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العُسْر ولتكملوا العِدّة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلّكم تشكرون ﴾ وإنّ كلاً من هذه الأقسام الأربعة بمثابة النّور الّذى يشدّ إلى مصدره فى الآية الكريمة ذاتها والّذى يضيف إلى ذلك المصدر أو النّبع نوراً إلى نور أو مزيداً من الضّوء . فمع كلٍّ على حدة .

إنّ القول : ﴿ يريد الله بكم اليُسْر ولا يريد بكم العسر ﴾ يرتبط ابتداءً بكلّ ما فى الآية الكريمة بل الآيات الكريمات من تخفيفٍ من الله تعالى عنّا وتسهيل ، فنحن أمام التّخفيف عن المريض والمسافر والّذى يستنفد الصّوم كلّ طاقته ، وبصدد الحامل والمرضع قياساً ، وبصدد التّخفيف من الله تعالى عنا إذ أباح لنا وأحلّ ليلة الصّيام ما كان

محرّماً من قبل . وهذا القول وراء ذلك عامّ فدين الله سبحانه وتعالى يُسْر وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ وما جعل عليكم فى الدّين من حرج ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ يريد الله أن يخفّف عنكم وخُلِق الإنسان ضعيفاً ﴾ وإنّ رحمة البرّ الرّحيم لا تكتفى بتقرير إرادة اليُسْر وهذا فى حدّ ذاته فضلٌ من الله تعالى كبير ، إنّما تتجاوزه إلى نفى إرادة العسر ، هذا إلى أنّ التّعبير يجىء فى صيغة الزّمن المضارع الّذى يفيد التّجدّد والاستمرار .

وإنّ القول : ﴿ ولتكملوا العدّة ﴾ يرتبط بالقول فى الآية الكريمة : ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فَعِدّةٌ من أيّام أخر ﴾ وبالقول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيّام أخر ﴾ وإنّ إكمال العدّة قوةٌ للقول : ﴿ أيّاما معدودات ﴾ وللقول ﴿ وأن تصوموا خيرٌ لكم ﴾ وللقول : ﴿ شهر رمضان ﴾ وللقول : ﴿ فمن شهد منكم الشّهر فليصمه ﴾ . إنّ من رحمه الله تعالى التّخفيف عنّا . وإنّ من رحمته جلّ وعلا أن أرشدنا إلى كيفيّة القضاء وإكمال العدّة : ﴿ وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾[٣] .

وإنّ القول : ﴿ ولتكبّروا الله على ما هداكم ﴾ تقريرٌ للهداية بشأن كيفيّة الصّيام وكيفيّة القضاء فى حقّ من انتفع من الرّخصة وكيفيّة الفدية ، وتقريرٌ لمطلق الهداية فى كلّ شئوننا نحن المسلمين الّذين أكمل الله تعالى لنا ديننا وأتمّ نعمته علينا ورضى لنا الإسلام ديناً . وقد قال عزّ من قائل[٤] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وفى مقابل هداية الله تعالى لنا إلى معالم الدّين الحنيف تقرّر الآية الكريمة أنّ واجبنا أن نكبّر الله تعالى على ما هدانا إليه من صيام وقيام وقضاء وفدية وكلّ شئوننا الدّينيّة . « ولهذا جاءت السّنّة باستحباب التّسبيح والتّحميد والتّكبير بعد الصّلوات المكتوبات . وقال ابن عبّاس : ما كنّا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلاّ بالتّكبير ولهذا أخذ كثيرٌ من العلماء مشروعيّة التّكبير فى عيد الفطر من هذه الآية »[٥] .

---

(١) سورة الحجّ ٧٨
(٢) سورة النسّاء ٢٨
(٣) سورة الأعراف ٤٣
(٤) سورة المائدة ٣
(٥) تفسير ابن كثير ١/٢١٧

فإذا تحوّلنا إلى القول الأخير فى الآية الكريمة : ﴿ ولعلّكم تشكرون ﴾ استطعنا أن نتبيّن أنّه تصريحٌ بما ألمح إليه القول السّابق : ﴿ ولتكبّروا الله على ما هداكم ﴾ لأنّ تكبير الله تعالى بسبب الهداية مظهرٌ من مظاهر الشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه . وإنّ القول الأخير فى الآية الكريمة يدعو صراحةً إلى هذا الشّكر لأنّ النّعم إنّما تدوم وتزداد بالشّكر وقد قال تعالى[١] : ﴿ وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابى لشديد ﴾ ونحن نصادف حرف العطف الواو الدّالّ على عطف الكلام على ما قبله ، ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العَدّة ولتكبّروا الله ما هداكم ولعلّكم تشكرون ﴾ كما نصادف « لعلّ » الحرف الدّالّ على التّرجّى ، وهو توقّع الأمر الممكن المحبوب . فالمتوقّع من المسلمين والمأمول أن يبادروا إلى الشّكر لله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهى وبعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فإنّ ثواب الشّكر عائدٌ إليهم ، فنحن الفقراء والله سبحانه وتعالى هو الغنىّ وحينما نصادف الحرف الدّالّ على التّرجى فذلك معناه أنّ الدّعوة إلى الشّكر والأمر به يلفّهما رجاء استجابة العباد ، وكأنّ من هؤلاء العباد من يستجيب ومنهم من لا يستجيب ، وكأنّ القول : ﴿ ولعلّكم تشكرون ﴾ يأخذ بسببٍ من مثل قوله تعالى[٢] : ﴿ وقليلٌ من عبادى الشّكور ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار ﴾ والله سبحانه وتعالى هو دائماً وأبداً الشّكور الحليم الغفور الرّحيم . قال تعالى[٤] : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حليم . عالِمُ الغيب والشّهادة العزيزُ الحكيم ﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها . إنّ الله لغفورٌ رحيم ﴾ .

وإنّ ختم الآية الكريمة ، المتضمّنة لعددٍ من مظاهر رحمة الله تعالى بنا ، بالقول : ﴿ ولعلّكم تشكرون ﴾ الّذى فيه حثٌّ على الشّكر لله لأنّ فى ذلك الشّكر الثّواب الجزيل

---

(١) سورة إبراهيم ٧
(٢) سورة سبأ ١٣
(٣) سورة إبراهيم ٣٤
(٤) سورة التّغابن ١٧ ، ١٨
(٥) سورة النّحل ١٨

والخير العميم لنا يعتبر تتويجاً لنعم الله تعالى علينا فى الآية الكريمة وذلك بتنبيهنا إلى وجوب الشّكر إثر ذكر النّعم وذلك فى مقابل حثّنا على التّقوى إثر ذكر التّكاليف وقد تبيّنّا أنّ كلاً من أولى آيات الصيّام وآخر الآيات تنتهى بترجّى التّقوى . إنّ من مظاهر رحمة الله تعالى وفضله أن يقترن الحثّ على الشّكر بالتّيسير والتّخفيف ، وأن يقترن الحثّ على التّقوى بالمشقّة والتّكليف[١] .

وإليك ما يقوله الزّمخشرىّ رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[٢] : « فقوله : لتكملوا ، عّلة الأمر بمراعاة العدّة . ولتكبّروا ، علة ما علم من كيفيّة القضاء والخروج من عهدة الفطر . ولعلّكم تشكرون :علّة التّرخيص والتّيسير . وهذا نوعٌ من اللّفّ لطيفُ المسلك لا يكاد يهتدى إلى تبيّنه إلا النّقّاب المحدث من علماء البيان » .

الآيــة رقــم (١٨٦)

قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنّى فإنّى قريبٌ أجيب دعوة الدّاع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون ﴾ .

ســبب الــنّزول :

قال الحسن : سببها أنّ قوماً قالوا للنّبىّ ﷺ : أقريبٌ ربّنا فنناجيه أم بعيدٌ فنناديه ؟ فنزلت[٣] وعن عطاء قال : لمّا نزلت : ﴿ وقال ربّكم ادعونى أستجب لكم ﴾ قالوا : فى أىّ ساعة ؟ قال : فنزلت : ﴿ وإذا سألك عبادى عنّى فإنّى قريب ﴾ ، إلى قوله : ﴿ لعلّهم يرشدون ﴾[٤] .

فإنّى قريب : أى بالإجابة . وقيل : بالعِلْم . وقيل قريبٌ من أولياىٔ بالإفضال

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ٤٥/٢ (٢) الكشّاف ٢٥٦/١

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٨٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٩٢/٢ وتفسير ابن كثير ٢١٨/١ والكشّاف ٢٥٦/١ والجلالين والبحر المحيط ٤٥/٢ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٩٢/٢ وتفسير ابن كثير ٢١٨/١

والإنعام[١] ويقول الزّمخشريّ[٢] : « فإنّي قريب : تمثيلٌ لحاله فى سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بحال من قرب مكانه ، فإذا دعى أسرعت تلبيته . ونحوه . ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ روى الإمام أحمد عن أبى موسى الأشعريّ قال : كنّا مع رسول الله ﷺ فى غزوةٍ فجعلنا لا نصعد شَرَفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلاّ رفعنا أصواتنا بالتّكبير . قال : فدنا منّا فقال : يا أيّها النّاس أربعوا على أنفسكم فإنّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنّما تدعون سميعاً بصيرا . إنّ الّذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته . يا عبد الله بن قيس : ألا أعلمك كلمةً من كنوز الجنّة ؟ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله . أخرجاه فى الصّحيحين وبقيّة الجماعة[٣] .

أجيب دعوة الدّاع إذا دعان : الهاء فى دعوة هنا ليست للمرّة وإنّما المصدر هنا بنى على فعلة نحو رحمة[٤] عن أبى سعيدٍ الخدريّ رضى الله عنه أنّ النبىّ ﷺ قال : ما من مسلم يدعو الله عزّ وجلّ بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إمّا أن يعجل له دعوته ، وإمّا أن يدّخرها له فى الأخرى ، وإمّا أن يصرف عنه من السّوء مثلها . قالوا : إذن نكثر . قال : الله أكثر[٥] وعن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لى . أخرجاه فى الصّحيحين من حديث مالك به . وهذا لفظ البخاريّ رحمه الله وأثابه الجنّة[٦] وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال : القلوب أوعية : وبعضها أوعى من بعض . فإذا سألتم الله أيّها النّاس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإنّه لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهر قلبٍ غافل[٧] وفى مسند الإمام أحمد وسنن التّرمذىّ والنّسائى وابن ماجة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثةٌ لا تردّ دعوتهم : الإمام العادل . والصّائم حتّى يفطر . ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦٨٤ (٢) الكشّاف ١/٢٥٦
(٣) تفسير ابن كثير ١/٢١٨ (٤) البحر المحيط ٢/٤٦
(٥) تفسير ابن كثير ١/٢١٨ وتفسير القرطبىّ ص ٦٨٦ والبحر المحيط ٢/٤٦
(٦) تفسير ابن كثير ١/٢١٨ وتفسير القرطبىّ ص ٦٨٦
(٧) تفسير ابن كثير ١/٢١٩

القيامة وتفتح لها أبواب السّماء ويقول : بعزّتى لأنصرنّك ولو بعد حين[١] .

وللدّعاء أوقاتٌ وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة ، وذلك كالسَّحَر ووقت الفطر وما بين الأذان والإقامة وأوقات الاضطرار وحالة السّفر والمرض وعند نزول المطر والصّفّ فى سبيل الله[٢] والعيدين والسّاعة الّتى أخبر عنها النّبىّ ﷺ فى يوم الجمعة[٣] وإنّ قول الحقّ فى الآية الكريمة : أجيب ، وقوله فى سورة غافر[٤] : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم . إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنّم داخرين ﴾ لا يقتضى الاستجابة مطلقاً لكلّ داعٍ على التّفصيل ، ولا بكلّ مطلوبٍ على التّفصيل ، فقد قال ربّنا تبارك وتعالى فى آيةٍ أخرى : ﴿ ادعوا ربّكم تضرّعاً وخُفْية إنّه لا يحبّ المعتدين ﴾ . وكلّ مُصِرٍّ على كبيرةٍ عالماً بها أو جاهلاً فهو معتد ، وقد أخبر إنّه لا يحبّ المعتدين فكيف يستجيب له . وأنواع الاعتداء كثيرة[٥] قلت : ويمنع من إجابة الدّعاء أيضاً أكل الحرام وما كان فى معناه . قال ﷺ : الرّجل يطيل السّفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السّماء يا ربّ يا ربّ ومطعمه حرامٌ ومشربه حرام وملبسه حرامٌ وغذى بالحرام فأنّى يستجاب لذلك . وهذا استفهامٌ على جهة الاستبعاد على قبول دعاء من هذه صفته ، فإنّ إجابة الدّعاء لابدّ لها من شروطٍ فى الدّاعى وفى الدّعاء وفى الشّىء المدعوّ به[٦] .

فليستجيبوا لى : أجاب واستجاب بمعنى . وألفه منقلبة عن واو . يقال : جاب يجوب قطع . فكأنّ المجيب اقتطع للسّائل ما سأل أن يعطاه . يقال : أجابت السّماء بالمطر ، وأجابت الأرض بالنّبات . كأنّ كلاًّ منهما سأل صاحبه فأجابه بما سأل . قال زهير :

وغيثٍ من الوسمىّ حُوٍّ تلاعه ... أجابت روابيه النّجا وهواطله[٧]

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢١٩ (٢) انظر تفسير القرطبىّ ص ٦٨٨

(٣) البحر المحيط ٢/٤٦ (٤) الآية ٦٠

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٦٨٥ (٦) تفسير القرطبىّ ص ٦٨٧

(٧) البحر المحيط ٢/٢٧ غيث : نبات . الوسمىّ : أوّل المطر . الحوّ : الشّديدة الخضرة . والتّلاع : مجارى الماء من أعلى الأرض إلى الوادى . والنّجا جمع نجوة ، وهى المرتفع من الأرض . وهو بدل من الرّوابى ، وقصره للشّعر . والمعنى : أجابت روابيه النّجاء بالنّبت وأجابت هواطله بالمطر . مختار الشّعر الجاهلىّ ١/٢٤١ .

قال ابن عطيّة : المعنى فليطلبوا أن أجيبهم . وهذا هو باب استفعل أى طلب الشّىء إلاّ ما شذّ مثل : استغنى الله . وقال مجاهد وغيره : المعنى فليجيبوا إلىّ فيما دعوتهم إليه من الإيمان أى الطّاعة والعمل[١] ويقول الطّبرىّ[٢] : « وأمّا قوله : فليستجيبوا لى فإنّه يعنى : فليستجيبوا لى بالطّاعة ، يقال منه : استجبت له واستجبته بمعنى أجبته كما قال كعب بن سعد الغنوىّ :

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النّدى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

يريد : فلم يجبه . وبنحو ما قلنا فى ذلك قال مجاهد وجماعةٌ غيره » ويقول الزّمخشرىّ[٣] « فليستجيبوا لى : إذا دعوتهم للإيمان والطّاعة ، كما أنّى أجيبهم إذا دعونى لحوائجهم » .

وليؤمنوا بى : وليصدّقوا : أى وليؤمنوا بى إذا هم استجابوا لى بالطّاعة أنّى لهم من وراء طاعتهم لى فى الثّواب عليها وإجزالى الكرامة لهم عليها[٤] .

لعلّهم يرشدون : لعلّهم يهتدون[٥] لمصالح دينهم ودنياهم[٦] والرُّشد والرّشاد خلاف الغىّ . وقد رَشَدَ يَرْشُد رُشداً ورشِد (بالكسر) يرشَدُ رَشَداً لغة فيه . وأرشده الله . وهو لِرشدة أى هو لحلال وهو خلاف قولك هو لِزنْية[٧] وأرشدت فلاناً هديته . وطريقٌ أرشد أى قاصد . والمراشد مقاصد الطّريق[٨] .

فى أعماق حديث الآيات الكريمات عن الصّيام تجئ الآية الكريمة الّتى تحثّ المسلمين لله ربّ العالمين على الإقبال على الله تعالى بفعل الطّاعات واجتناب المعصيات وبدعائه عزّ وجلّ فإنّه تعالى قريبٌ من عباده مجيبٌ دعوة الدّاعى إذا دعاه . إنّ هذا الانعطاف فى الحديث ثمّ العودة إلى الحديث فى الصّيام قمينٌ بالتّأمّل والتّدبر .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦٨٩
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٣
(٣) الكشّاف ١/٢٥٦
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٣
(٥) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٣
(٦) البحر المحيط ٢/٤٧
(٧) انظر تفسير القرطبى ص ٦٨٩ والبحر المحيط ٢/٢٧
(٨) البحر المحيط ٢/٢٧

وإنّ أهمّ ما يلفت الانتباه فى الآية الكريمة هو قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فإنّى قريب ﴾ وكأن المسلم لله رب العالمين الّذى يشهد ألاّ إلـه إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ويطبّق أركان الإسلام ومنها صوم رمضان ويطبّق تعاليم الإسلام ومنها تلاوة القرآن الكريم ، فى الصّلاة وفى غير الصّلاة ، وبخاصّةٍ فى شهر رمضان المبارك شهر القرآن الكريم ، وبذلك يكون المسلم لله رب العالمين قد جمع بين صيام النّهار وقيام اللّيل هذا إلى فعله للخيرات الّتى أمر الله تعالى بفعلها وبخاصّةٍ فى الشّهر الكريم شهر الخيرات تأسّياً بالمصطفى ﷺ ، كأنّ المسلم لله ربّ العالمين الّذى ذلك حاله وتلك صفاته قد بلغ مستوًى رفيعاً من صفاء النّفس وطهر القلب ونقاء الصّدر وسموّ الرّوح ويقظة الحسّ ورهافة الشّعور ، كأنّ المسلم لله ربّ العالمين قد صعد فى معارج السّموّ وارتقى فى مدارج الكمال للدّرجة الّتى صحّ معها بسبب إقباله الكلّىّ على الله تعالى وقربه منه جلّ وعلا أن ينبّه هو وأمثاله من المسلمين لله ربّ العالمين إلى أنّ ربّ العزّة البرّ الرّءوف الرّحيم قريبٌ من عباده الّذين كانوا بسبب جهادهم فى الله تعالى وهدايته جلّ وعلا لهم إلى سبله ، أهلاً لأن يضافوا إليه جلّ وعلا إضافة تشريفٍ وتكريمٍ فيقال : عباد الله وعباد الرّحمن .

وإنّ من مظاهر الودّ والحبّ فى الآية الكريمة واللّطف والبرّ أن يتّجه الخطاب فى الآية الكريمة إلى المصطفى ﷺ فى ذلك المحيط الّذى يلفّه رضا الملك الدّيّان ويشمله فضل الكريم المنّان . وها هى ذى الآية الكريمة يجىء فيها على لسان ربّ العزة القول خطاباً له ﷺ : ﴿ وإذا سألك عبادى عنّى ﴾ إنّ الحديث يتّجه إلى المصطفى ﷺ رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة والمعنى أنّك أيّها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم إذا سألك عبادى ، الّذين نالوا شرف الانتساب لى بسبب تحقّق صفات العبوديّة الحقّة فيهم فكانوا أهلاً لأن يقال لهم : عباد الله وعباد الرّحمن ، إذا سألك عبادى عنّى أنا الله الّذى لا إلـه إلا أنا عالم الغيب والشّهادة الرّحمن الرّحيم فقالوا : أقريبٌ ربّنا فنناجيه أم بعيدٌ فنناديه ؟ فقل أيّها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم لعبادى الّذين تقرّبوا إلىّ بما افترضته عليهم حتّى أحببتهم فكنت سمعهم الّذى يسمعون به وبصرهم الّذى يبصرون به ويدهم الّتى يبطشون بها ورجلهم الّتى يمشون بها ، بأنّى قريب فى سهولة إجابتى لمن دعانى وسرعة تلبيتى طِلْبَةَ من

سألنى وتحقيقى حاجة من رجانى . ﴿ وإذا سألك عبادى عنّى فإنّى قريبٌ أجيب دعوة الدّاع إذا دعان ﴾ .

والآية الكريمة تنبّه إلى المطلوب فى المقابل من هؤلاء العباد إضافةً إلى النّعوت المتحقّقة بالفعل فيهم حتّى استحقّوا أن يشير إليهم ربّ العزّة بالقول : « عبادى » قال تعالى : ﴿ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون ﴾ .

إنّ المطلوب من عباد الله تعالى الّذين هم أهلٌ لأن يستجيب الله تعالى دعاءهم إذا دعوا أن يستجيبوا لله تعالى أمره جلّ وعلا لهم بطاعته والإقبال عليه بقلوبٍ خاشعة ونفوسٍ ضارعة وعيونٍ دامعة وأن يستمرّوا على ما اتّصفوا به من إيمانٍ عميقٍ قمينٍ بأن يزيده الله تعالى رسوخاً وقوّة ، ومن يقينٍ صادقٍ بقدرة الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ والّذى لا يعجزه شيءٍ فى الأرض ولا فى السّماء . إنّهم حينما يتّصفون بهذه الصّفات وحينما يجاهدون فى الله تعالى وفى سبيله جلّ وعلا حقّ الجهاد فإنّهم أهلٌ لأن يكون الرّشاد حليفهم والهداية نصيبهم والتّوفيق حظّهم ، أهلٌ لأن يدعوا الله تعالى وأنّ يستجيب جلّ وعلا لهم ، لأن المأمول فى دعاء هؤلاء العباد إضافةً إلى سلامة القلب الصّادر عنه النّابع منه أن يكون الباعث عليه هو الخير لعباد الله تعالى فى دينهم ودنياهم . ومن سمات هؤلاء العباد الإقبال على الله تعالى علانيةً وسرّاً ، نهاراً وليلاً ، وقد جاء فى صفات المؤمنين عباد الرّحمن قوله تعالى[١] : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ والّذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياما ﴾ وبهذا صحّ لدعاء هؤلاء العباد صحّة الوقت ، وسلامة النّبع أعنى القلب ، وإصابة الهدف أعنى سلامة القصد وصحّة الغرض .

وما دامت الآية الكريمة تجىء فى أثناء آيات الصيّام ففى الإمكان الاستئناس ببعض أحاديث المصطفى ﷺ فى الصّيام . قال رسول الله ﷺ[٣] : « والّذى نفسى بيده لخُلوفُ فم الصّائم أطيبُ عند الله تعالى من ريح المِسْك يترك طعامه وشرابه وشهوته

---

(١) سورة السّجدة ١٦ (٢) سورة الفرقان ٦٤

(٣) صحيح البخارى ٣/٣١

من أجلى . الصّيام لى وأنا أجزى به والحسنة بعَشْر أمثالها » وقال ﷺ(١) « إنّ فى الجنّة باباً يقال له الرّيّان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحدٌ غيرهم يقال : أين الصّائمون فيقومون لا يدخل منه أحدٌ غيرهم فإذا دخلوا أُغلِق فلم يَدْخُل منه أحد » وقال ﷺ(٢) « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنّة » . وقال ﷺ(٣) « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه » و « كان النّبىّ ﷺ أجودَ النّاس بالخير وكان أجودُ ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل عليه السّلام يلقاه كلَّ ليلةٍ فى رمضان حتّى يَنْسلِخ يَعْرِض عليه النّبىّ ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل عليه السّلام كان أجودَ بالخير من الرّيح المرسلة(٤) وقال ﷺ(٥) « من لم يدع قول الزّور والعَمَلَ به فليس لله حاجةٌ فى أن يدع طعامه وشرابه » . وقال ﷺ(٦) « قال الله : كلُّ عمل ابن آدم له إلاّ الصّيامَ فإنّه لى وأنا أجزى به ، والصّيام جُنّة ، وإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ فإن سابّه أحدٌ أو قاتله فليَقُلْ إنّى امرؤٌ صائم ..... للصّائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فَرِح وإذا لقى ربّه فَرِح بصومه » .

الآيــة رقــم (١٨٧)

قال تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصّيام الرَّفَثُ إلى نسائكم ، هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ .. علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ثم أتمّوا الصّيام إلى اللّيل . ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد . تلك حدود الله فلا تقربوها . كذلك يبيّن الله آياته للنّاس لعلّهم يتقون ﴾ .

---

(١) صحيح البخارىّ ٣/٣٢
(٢) صحيح البخارىّ ٣/٣٢
(٣) صحيح البخارىّ ٣/٣٣
(٤) صحيح البخارى ٣/٣٣
(٥) صحيح البخارىّ ٣/٣٣
(٦) صحيح البخارىّ ٣/٣٤

سبب النزول :

« روى البخارىّ[١] عن البراء قال : كان أصحاب محمّد ﷺ إذا كان الرّجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يُفْطِر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يُمْسى . وإنّ قيس بن صِرْمة الأنصارىّ كان صائماً وفى رواية : كان يعمل فى النّخيل بالنّهار وكان صائماً ، فلمّا حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت : لا ولكن انطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل ، فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلمّا رأته قالت : خيبةً لك ! فلمّا انتصف النّهار غشى عليه ، فذُكِر ذلك للنّبىّ ﷺ فنزلت هذه الآية : أُحِلّ لكم ليلة الصّيام الرّفثُ إلى نسائكم ، ففرحوا فرحاً شديداً ، فنزلت : وكلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . وفى البخارىّ أيضاً عن البراء قال : لمّا نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النّساء رمضان كلّه ، وكان رجالٌ يخونون أنفسهم فأنزل الله تعالى : ﴿ علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ﴾ »[٢] كان الرّجل إذا أمسى حلّ له الأكل والشّرب والجماع إلى أن يصلّى العشاء الآخرة أو يرقد . فإذا صلاّها أو رقد ولم يُفْطِر حرم عليه الطّعام والشّراب والنّساء إلى القابلة . ثمّ إنّ عمر رضى الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة فلمّا اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه فأتى النّبىّ ﷺ وقال : يا رسول الله : إنّى أعتذر إلى الله وإليك من نفسى هذه الخاطئة ، وأخبره بما فعل . فقال عليه الصّلاة والسّلام : ما كنت جديراً بذلك يا عمر . فقام رجالٌ فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء فنزلت[٣] ومن هؤلاء الّذين اعترفوا كعب بن مالك رضى الله عنه[٤] .

ممّا سبق يتبيّن أن الآية الكريمة نزلت فى المناسبتين الاثنتين معاً مناسبة قيس بن صرمة من بنى الخزرج[٥] ومناسبة الّذين اختانوا أنفسهم . ويفهم من كلام الطّبرىّ أن

---

(١) صحيح البخارى ٣/٣٦

(٢) تفسير القرطبى ص ٦٩٠ وانظر تفسير ابن كثير ١/٢٢٠ وتفسير الطّبرىّ ٢/٩٧

(٣) الكشّاف ١/٢٥٦ وانظر البحر المحيط ٢/٤٨

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١/٢٢٠ والبحر المحيط ٢/٤٨ (٥) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٨

المناسبيتن كانتا فى وقتٍ واحد . فحينما قال النّبىّ ﷺ لقيس : مالك أمسيت طليحاً وقصّ قيسٌ عليه ﷺ القصّة قام هو الآخر « فاعتذر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنّى أعوذ بالله إنّى وقعت على جاريتى و لم أملك نفسى البارحة . فلمّا تكلّم عمر تكلّم أولئك النّاس »[١] .

أحلّ لكم : أطلق لكم وأبيح[٢] وهذا يقتضى أنّه كان حراماً قبل ذلك[٣] فمتى نام أحدهم أو صلّى العشاء حرم عليه الطّعام والشراب والجماع إلى اللّيلة القابلة فوجدوا من ذلك مشقّةً كبيرة[٤] .

ليلة الصيام : فى ليلة الصّيام[٥] ولا يراد بليلة الوحدة بل الجنس[٦] .

الرّفث إلى نسائكم : قال ابن عبّاس والزّجّاج وغيرهما : الرّفث كلمةٌ جامعة لكلّ ما يريده الرّجل من المرأة[٧] وقاله الأزهرىّ أيضاً[٨] ويقول ابن كثير[٩] : « الرّفث هنا هو الجماع . قاله ابن عبّاس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وطاوس وسالم وعبد الله وعمر بن دينار والحسن وقتادة والزّهرىّ والضّحّاك وإبراهيم النّجعىّ والسّدىّ وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيّان » وعُدِّى بإلى لتضمّنه معنى الإفضاء[١٠] الّذى يراد به الملابسة فى مثل قوله : ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ . ومن هذا المعنى قوله : ﴿ يوم يحمى عليها ﴾ ، أى يوقد ، لأنّك تقول : أحميت الحديدة فى النّار . ومنه قوله : ﴿ فليحذر الّذين يخالفون عن أمره ﴾ حمل على معنى ينحرفون عن أمره أى يروغون عن أمره لأنّك تقول : خالفت زيدا . ومثله قوله تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ ، حمل على رءوف فى نحو : ﴿ بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ﴾ ألا ترى أنّك تقول : رؤفت به ولا تقول :

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٧
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٤
(٣) البحر المحيط ٢/٤٨
(٤) تفسير ابن كثير ١/٢٢٠
(٥) تفسير الطّبرىّ ٢/٩٤
(٦) البحر المحيط ٢/٤٨
(٧) البحر المحيط ٢/٢٧
(٨) تفسير القرطبى ص ٦٩١
(٩) تفسير ابن كثير ١/٢٢٠ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٩٤
(١٠) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ١٩٩ والكشّاف ١/٢٥٧

رحمت به . ولكنّ لمّا وافقه فى المعنى نزّل منزلته فى التّعدية[١] وأصل التّعدية بالباء وحسّن التّعدية بإلى هذا التّضمين فصار ذلك قريباً من الكنايات الّتى جاءت فى القرآن من قوله : ﴿ فلّما تغشاها ﴾ ، ﴿ ولا تقربوهنّ ﴾ ، ﴿ فأتوا حرثكم ﴾ ، ﴿ فالآن باشروهن ﴾[٢] .

والنّساء جمع الجمع وهو نسوة أو جمع امرأة على غير اللّفظ[٣] .

هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ : اللّباس واللّبوس واللّبس : ما يُلْبَس . قال تعالى : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم ﴾ . وجُعل اللّباس لكلّ ما يُغطّى من الإنسان عن قبيح ، فجُعِل الزوج لزوجه لباساً من حيث إنّه يمنعها ويصدّها عن تعاطى قبيح . قال تعالى : ﴿ هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ ﴾ . فسمّاهنّ لباساً كما سمّاها الشّاعر إزاراً فى قوله :

فِدًى لَكَ مِنْ أخى ثقةٍ إزارى

وجُعِل التّقوى لباساً على طريق التّمثيل والتّشبيه . قال تعالى : ﴿ ولباس التّقوى ﴾[٤] وقدّم : ﴿ هنّ لباسٌ لكم ﴾ على قوله : ﴿ وأنتم لباسٌ لهنّ ﴾ لظهور احتياج الرّجل إلى المرأة وقلّة صبره عنها[٥] .

علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم : إن كانت علم معدّاة تعدية عرف فسدّت أنّ مسدّ المفعول . أو التّعدية الّتى هى لها فى الأصل فسدّت مسدّ المفعولين على مذهب سيبويه[٦] يقال : خان واختان بمعنًى من الخيانة ، أى تخونون أنفسكم بالمباشرة فى ليالى الصّوم . ومن عصى الله فقد خان نفسه إذ جلب إليها العقاب . وقال القتبّى : أصل الخيانة أن يؤتمن الرّجل على شىءٍ فلا يؤدّى الأمانة فيه[٧] وافتعل هنا بمعنى فعل ، فاختان بمعنى خان كاقتدر بمعنى قدر . قيل : وزيادة الحرف تدلّ على الزّيادة فى المعنى[٨] يقول الزمخشرى[٩] « والاختيان من الخيانة كالاكتساب من الكسب ، فيه زيادةٌ وشدّة » .

---

(١) انظر تفسير القرطبّى ص ٦٩١
(٢) انظر البحر المحيط ٤٨/٢
(٣) البحر المحيط ٤٨/٢
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانّى ص ٤٤٧
(٥) البحر المحيط ٤٩/٢
(٦) البحر المحيط ٤٩/٢
(٧) تفسير القرطبى ص ٦٩٠
(٨) البحر المحيط ٤٩/٢
(٩) الكشّاف ٢٥٧/١

فتاب عليكم : يحتمل معنيين ، أحدهما قبول التّوبة من خيانتهم لأنفسهم . والآخر التّخفيف عنهم بالرّخصة والإجابة كقوله تعالى : ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾ ، أى خفّف عنكم . وقوله عقيب القتل الخطأ : فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله ، يعنى تخفيفاً ، لأنّ القاتل خطأً لم يفعل شيئاً تلزمه التّوبة منه . وقال تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النّبىّ والمهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه فى ساعة العسرة ﴾ وإن لم يكن من النّبىّ ما يوجب التوبة منه[١] والتّوب ترك الذّنب على أجمل الوجوه ، وهو أبلغ وجوه الاعتذار ، كأن يقول : فعلتُ وأسأتُ وقد أَقْلَعْتُ وهو التّوبة . والتّوبة فى الشّرع ترك الذّنب لقبحه والنّدم على ما فَرَطَ منه والعزيمة على ترك المعاودة وتداركُ ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة . وتاب الله عليه : أى قَبِل توبته منه . والتّائب يقال لباذل التّوبة ولقابل التّوبة . فالعبد تائبٌ إلى الله ، والله تائبٌ على عبده[٢] .

وعفا عنكم : يحتمل العفو من الذّنب ويحتمل التّوسعة والتّسهيل كقول النّبىّ ﷺ : أوّل الوقت رضوان الله وآخره عفو الله يعنى تسهيله وتوسعته[٣] ويقول ابن فارس بشأن العفو[٤] : « العين والفاء والحرف المعتلّ أصلان يدلّ أحدهما على ترك الشّىء والآخر على طلبه . ثمّ يرجع إليه فروعٌ كثيرة لا تتفاوت فى المعنى . فالأوّل العفو ، عفو الله تعالى عن خلقه ، وذلك تركه إيّاهم فلا يعاقبهم فضلاً منه . قال الخليل : وكلّ من استحقّ عقوبةً فتركتَهُ فقد عفوتَ عنه . يقال عفا عنه عَفْواً . وهذا الّذى قاله الخليل صحيح » .

فالآن : أى فهذا الزّمان ، أى ليلة الصّيام باشروهنّ . وهذا أمرٌ يراد به الإباحة لكونه ورد بعد النّهى ولأنّ الإجماع انعقد عليه[٥] .

باشروهنّ : كنايةٌ عن الجماع ، أى قد أحلّ لكم ما حرم عليكم[٦] والبَشَرَةُ

---

(١) تفسير القرطبى ص ٦٩٢

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٧٦ وانظر فى شروط التّوبة رياض الصّالحين ص ١٠

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٩٢

(٤) معجم مقاييس اللّغة « عفو » ٥٦/٤

(٥) البحر المحيط ٤٩/٢

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٦٩٣ وتفسير ابن كثير ٢٢٠/١ وتفسير الطّبرىّ ٩٨/٢

ظاهر الجِلْد والأَدَمة باطنه[١] والمباشرة فى قول الجمهور الجماع وقيل الجماع فما دونه . وهو مشتقّ من تلاصق البشرتين فيدخل فيه المعانقة والملامسة[٢] وقد ابتدأ بنازلة عمر لأنّه المهمّ فهو المقدّم[٣] .

وابتغوا ما كتب الله لكم : قال ابن عبّاس ومجاهد والحكم بن عتيبة وعكرمة والحسن والسّدّىّ والرّبيع والضّحّاك : معناه ، وابتغوا الولد ، يدلّ عليه أنّه عقيب قوله : فالآن باشروهنّ[٤] واطلبوا ما قسم الله لكم وأثبت فى اللّوح [المحفوظ] من الولد بالمباشرة . أى لا تباشروا لقضاء الشّهوة وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النّكاح من التّناسل[٥] .

وكلوا واشربوا : هذا جواب نازلة قيس ، والأوّل جواب عمر[٦] وهو أمر إباحة[٧] .

حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر : حتّى غايةٌ للتّبيين ، ولا يصحّ أن يقع التّبيين لأحدٍ ويحرم عليه الأكل إلاّ وقد مضى نطلوع الفجر قدر . واختلف فى الحدّ الّذى بتبيّنه يجب الإمساك فقال الجمهور : ذلك الفجر المعترض فى الأفق يَمْنةً ويَسْرة . وبهذا جاءت الأخبار ومضت عليه الأمصار . روى مسلم عن سُمرة بن جُندب رضى الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : لا يغرّنّكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأُفق المستطيل هكذا حتّى يستطير هكذا[٨] وحكاه حمّاد[٩] بيديه قال : يعنى معترضاً . وفى حديث ابن مسعود : إنّ الفجر ليس الّذى يقول[١٠] هكذا

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٧ (٢) البحر المحيط ٢/٥٠

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٩٣

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٦٩٣ وانظر البحر المحيط ٢/٥٠ وتفسير ابن كثير ١/٢٢١ وتفسير الطّبرىّ ٢/٩٨ .

(٥) الكشّاف ١/٢٥٧ والبحر المحيط ٢/٥٠

(٦) تفسير القرطبى ص ٦٩٣ (٧) البحر المحيط ٢/٥٠

(٨) حتى يستطير أى ينتشر ضوؤه ويعترض فى الأفق بخلاف المستطيل . والاستطارة هذه تكون بعد غيبوبة ذلك المستطيل .

(٩) حمّاد هذا هو حمّاد بن زيد أحد رجال سند هذا الحديث .

(١٠) يقول : يظهر .

وجمع أصابعه ثمّ نكسها إلى الأرض ، ولكن الّذى يقول هكذا ووضع المسبِّحة على المسبِّحة ومدّ يديه[١] .

روى البخارىّ ومسلم عن سهل بن سعد قال أنزلت : وكلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ولم ينزل : من الفجر . وكان رجالٌ إذا أرادوا الصّوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود . ولا يزال يأكل ويشرب حتّى يتبيّن له رؤيتهما فأنزل الله بعد : من الفجر ، فعلموا أنّه إنّما يعنى بذلك بياض النّهار . وعن عدىّ بن حاتم قال ، قلت يا رسول الله : ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟ قال : إنّك لعريض القفا[٢] إن أبصرت الخيطين ، ثمّ قال : لا بل هو سواد اللّيل وبياض النّهار . أخرجه البخارى[٣] وانظر إلى اللّفتة الكريمة من ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة والتّفسير اللّطيف للقول : إنّك لعريض القفا . يقول[٤] : « ومعنى قوله : إنّ وسادك إذاً لعريض ، أى إن كان ليسع الخيطين الخيط الأسود والأبيض المراد من هذه الآية تحتها فإنّهما بياض النّهار وسواد اللّيل ، فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب . وهكذا وقع فى رواية البخارىّ مفسّراً بهذا ، حدّثنا موسى بن إسماعيل حدّثنا أبو عوانة عن حصين عن الشّعبىّ عن عدىّ قال : أخذ عدىّ عقالاً أبيض وعقالاً أسود حتّى كان بعض اللّيل نظر فلم يستبينا فلمّا أصبح قال : يا رسول الله جعلت تحت وسادتى . قال : إنّ وسادك إذاً لعريض إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك . وجاء فى بعض الألفاظ : إنّك لعريض القفا . فسّره بعضهم بالبلادة وهو ضعيف . بل يرجع إلى هذا لأنّه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض . والله أعلم » .

والفجـــر مصدر فجرت الماء أفجره فجراً إذا جرى وانبعث ، وأصله الشّقّ ، فلذلك

---

(١) تفسير القرطبى ص ٦٩٣

(٢) رواية الإمام أحمد عن عدىّ بن حاتم : إنّ وسادك إذاً لعريض إنّما ذلك بياض النّهار من سواد اللّيل . تفسير ابن كثير ٢٢١/١ والقفا العريض يستدل به على قلّة فطنة الرّجل البحر المحيط ٥١/٢

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٩٥ (٤) تفسير ابن كثير ٢٢١/١

قيل للطّالع من تباشير ضياء الشّمس من مطلعها فجراً لانبعاث ضوئه ، وهو أوّل بياض النّهار الظّاهر المستطير فى الأفق المنتشر ، تسمّية العرب الخيط الأبيض[١] عن عائشة أنّ رسول الله قال : لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فإنّه ينادى بليل ، فكلوا واشربوا حتّى تسمعوا أذان ابن أمّ مكتوم فإنّه لا يؤذّن حتىّ يطلع الفجر . لفظ البخارىّ[٢] وقال الزّجّاج : هما فجران أحدهما يبدو سواداً معترضاً وهو الخيط الأسود والآخر يطلع ساطعاً يملأ الأفق . فعنده الخيطان هما الفجران سمّيا بذلك لامتدادهما تشبيهاً بالخيطين . وقوله : من الفجر ، يدلّ على أنّه أريد بالخيط الأبيض الصّبح الصّادق وهو البياض المستطير فى الأفق لا الصّبح الكاذب وهو البياض المستطيل لأنّ الفجر هو انفجار النّور ، وهو بالثّانى لا بالأوّل . وشبّه بالخيط وذلك بأوّل حاله لأنّه يبدو دقيقاً ثمّ يرتفع مستطيراً ، فبطلوع أوّله فى الأفق يجب الإمساك ، هذا مذهب الجمهور وبه أخذ النّاس ومضت عليه الأعصار والأمصار ، وهو مقتضى حديث ابن مسعود وسمرة بن جندب[٣] .

ومن الأولى هى لابتداء الغاية ، ومن الثّانية للتّبعيض لأن الخيط الأبيض هو بعض الفجر وأوّله[٤] ويقول الزّمخشرىّ[٥] : « الخيط الأبيض هو أوّل ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق كالخيط الممدود . والخيط الأسود ما يمتدّ معه من غبش اللّيل . شبّهما بخيطين أبيض وأسود . قال أبو دواد [الإيادى] :

فلمّا أضاءت لنا سُدْفَة[٦] ولاح من الصّبح خيطٌ أنارا

وقوله من الفجر : بيانٌ للخيط الأبيض . واكتفى به عن بيان الخيط الأسود لأنّ بيان أحدهما بيانٌ للثّانى . ويجوز أن تكون من للتّبعيض لأنه بعض الفجر وأوّله » .

ثم أتموا الصّيام إلى اللّيل : أى إلى دخوله بغروب الشّمس[٧] فإذا تبيّن اللّيل سنّ

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦٩٥ وانظر البحر المحيط ٢/٥١

(٢) تفسير ابن كثير ١/٢٢٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/١٠٠

(٣) البحر المحيط ٢/٥١ (٤) البحر المحيط ٢/٥١

(٥) الكشّاف ١/٢٥٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/١٠٢

(٦) السّدفة : بضمّ السّين وفتحها الظّلمة (٧) الجلالين

الفطر شرعاً أكل أو لم يأكل[١] كما جاء فى الصّحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أقبل اللّيل من هٰهنا وأدبر النّهار من هٰهنا فقد أفطر الصائم . وعن سهل بن سعد السّاعدىّ رضى الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : لا يزال النّاس بخيرٍ ما عجّلوا الفطر . أخرجاه[٢] .

ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد : ولا تجامعوا نساءكم فى حال عكوفكم فى المساجد ، وتلك حال حبسهم أنفسهم على عبادة الله فى مساجدهم . والعكوف أصله المقام وحبس النّفس على الشّىء[٣] بيّن جلّ وتعالى أنّ الجماع يفسد الاعتكاف . وأجمع أهل العلم على أنّ من جامع امرأته وهو معتكف عامداً لذلك فى فرجها أنّه مفسدٌ لاعتكافه . وأجمعوا على أنّ المعتكف لا يباشر ولا يقبّل[٤] والاعتكاف فى اللّغة الملازمة ، يقال : عكف على الشّىء إذا لازمه مقبلاً عليه[٥] ولمّا كان المعتكف ملازماً للعمل بطاعة الله مدّة اعتكافه لزمه هذا الاسم . وهو فى عرف الشّرع ملازمة طاعةٍ مخصوصةٍ فى وقتٍ مخصوصٍ على شرطٍ مخصوص فى موضعٍ مخصوصٍ . وأجمع العلماء على أنّه ليس بواجب وهو قُرْبةٌ من القُرَب ونافلةٌ من النّوافل[٦] وأجمع العلماء على أنّ الاعتكاف لا يكون إلاّ فى المسجد لقول الله تعالى : فى المساجد[٧] قال الشّافعىّ : أقله لحظة ولا حد لأكثره[٨] عن ابن عبّاس فى قوله : ﴿ ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ فى رمضان أو فى غير رمضان[٩] وليس للمعتكف أن يخرج من معتكفه إلا لما لا بدّ له منه ، لما روى الأئمّة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف يُدْنى إلىَّ رأسه فأرجّله . وكان لا يدخل البيت إلاّ لحاجة الإنسان ، تريد الغائط والبول . ولا خلاف فى هذا بين الأمّة ولا بين الأئمّة[١٠] وروى مسلم عن عائشة قالت : كان

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٧٠٣ (٢) تفسير ابن كثير ١/٢٢٣
(٣) تفسير الطّبرىّ ٢/١٠٤
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٧٠٧ وانظر البحر المحيط ٢/٥٣
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٧٠٧ (٦) تفسير القرطبىّ ص ٧٠٨
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٧٠٨ (٨) تفسير القرطبىّ ص ٧٠٩
(٩) تفسير الطّبرىّ ٢/١٠٥ وتفسير ابن كثير ١/٢٢٤
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٧١٠

رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلّى الفجر ثمّ دخل معتكفه الحديث[١] واستحبّ مالك لمن اعتكف العشر الأواخر أن يبيت ليلة الفطر فى المسجد حتّى يغدو منه إلى المصلّى وبه قال أحمد . وقال الشّافعى والأوزاعّى : يخرج إذا غابت الشّمس[٢] .

تلك حدود الله : أى هذه الأحكام حدود الله فلاتخالفوها ، فتلك إشارةٌ إلى هذه الأوامر والنّواهى . والحدود : الحواجز . والحدّ : المنع ومنه سمّى الحديد حديداً ، لأنّه يمنع من وصول السّلاح إلى البدن . وسمّيت حدود الله لأنّها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج منها ما هو منها ، ومنها سمّيت الحدود فى المعاصى ، لأنها تمنع أصحابها من العود إلى أمثالها[٣] كذلك يبيّن الله آياته : أى مثل ذلك البيان الّذى سبق ذكره فى أحكام الصّوم وما يتعلّق فى الألفاظ اليسيرة البليغة ، يبيّن آياته الدّالّة على بقيّة مشروعاته[٤] والآيات : العلامات الهادية إلى الحقّ[٥] .

لعلّهم يتّقون : ترجٍّ فى حقّهم ، فظاهر ذلك عموم ومعناه خصوصٌ فيمن يسّره الله للهدى بدلالة الآيات الّتى تتضمّن أنّ الله يضلّ من يشاء[٦] .

تبيّنّا أنّ الآية الكريمة نزلت فى أمرين اثنين وأنّها نسخت حكماً سابقاً ، وهذا الحكم مفاده أنّ من حقّ الصّائم وقد غربت الشّمس أن يأكل ويشرب ويأتى النّساء ما لم ينم أو يصلّ العشاء . فإذا نام أو صلّى العشاء حرم عليه كلّ ما كان حلالاً . وقد لقى المسلمون من ذلك عنتاً شديداً ومشقّةً بالغة . وبشأن إتيان النّساء تورّط بعض الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فى إتيانهنّ بعد النّوم أو بعد صلاة العشاء ، ومن هؤلاء عمر ابن الخطّاب وكعب بن مالك رضى الله تعالى عنهما ، وقد اعترفوا جميعاً بتلك المخالفة للمصطفى ﷺ . وبشأن الامتناع عن الطّعام والشّراب ليلة الصّيام بسبب النّوم ، صادف بعض الصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين وفيهم قيس بن صرمة الخزرجىّ عنتاً ومشقّةً استنفدتا طاقة قيس بن صرمة مثلاً فى نهار رمضان من اليوم التّالى فغشى عليه

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٧١١
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٧١٢
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٧١٢
(٤) البحر المحيط ٢/٥٤
(٥) تفسير القرطبى ص ٧١٢
(٦) تفسير القرطبى ص ٧١٢

بسبب المشقّة والجوع والعطش . وإنّ ربّ العزّة الّذى تسبق مغفرته عذابه ورحمته سخطه ليرحم عباده الصّائمين نهار رمضان القائمين ليلة المرتّلين كتابه العزيز ترتيلاً ، وها هو ذا ربّ العزّة يُحِلّ بعد تحريم فى ليالى شهر رمضان ، ومن باب أولى فى ليالى الصّيام من غير شهر رمضان ، الرّفث إلى نسائهم ، والإفضاء إلى زوجاتهم ، ويبيح للزّوج أن ينال ليلة الصّيام من زوجته كلّ ما يشتهيه الرّجل من أهله ، والزّوج من زوجته .

وإن جملة « أُحِلّ » تقذف إلى الذّهن بالحال المقابلة الّتى كانت من قبل حينما كان بالأمس حراماً ما هو حلالٌ اليوم . فكأننا بصدد طباقٍ معنوىّ . ثمّ إنّ لفظة الرّفث الّتى تعنى الجماع أساساً والّتى يتعدّى فعلها وما أشبهه بحرف الجرّ الباء ، حينما تتعدّى بحرف الجرّ إلى فيقال : ﴿ أُحِلّ لكم ليلةَ الصّيام الرّفثُ إلى نسائكم ﴾ تكتسب بسبب التّضمين معنًى آخر جديداً . فبعد أن كانت لفظة الرّفث صريحة الدّلالة على الجماع ومتعلّقاته تحوّلت بسبب العدول عن التّعدية بالباء إلى التعدية بإلى ، تحوّلت إلى نوعٍ من كنايات القرآن الكريمة اللّطيفة وأصبحت تفيد معنى الإفضاء ، ذلك المعنى اللّطيف الّذى نفهمه من قوله تعالى فى سورة النساء[1] : ﴿ وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ وآتيتم إحداهنّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعضٍ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ وإنّ إفادة القول﴿ الرّفث إلى نسائكم ﴾ المعنى الّذى يفيده القول : ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ مغرٍ بالوقوف على كنه هذه الكناية اللّطيفة . إنّ القول « أفضى » ذو علاقةٍ بالفضاء ، والمراد به المكان من الصّحراء الّذى ليس فيه فى أى جهةٍ من الجهات حاجز يحول بين البصر وبين أن يأخذ امتداده فى كلّ اتّجاه . وهذا النوع من الأمكنة لا يكون إلاّ فى أعماق الصّحارى ، فإذا انتهى المرء إلى ذلك النّوع من العمق الّذى ليس وراءه وراء قيل قد أفضى . وإنّ كلاًّ من الزّوجين يفضى إلى الآخر وينتهى منه إلى أعمق أعماقه ، وإنّ هذه المرامى البعيدة للإفضاء والمعانى العميقة هى الّتى يُفيدها القول : ﴿ أحلّ لكم

---

(١) الآية ٢٠ ، ٢١

الصّيام الرّفث إلى نسائكم ﴾ على الرّغم من كون اللّفظ مفرداً يفيد أساساً معنى الجماع .

والجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ ﴾ بمثابة التّبيين للجزئيّة الكريمة السّابقة والتّعليل ، وكأنّ المعنى : أحل لكم ليلة الصّيام الرّفث إلى نسائكم لأنّهنّ بمثابة اللّباس لكم والثّياب الّتى ترتدونها ، ولأنّكم بمثابة اللّباس لهنّ والثّياب . بل إنّ الجزئيّة الكريمة لتتجاوز مرحلة التّبيين والتّعليل إلى مرحلة الإيماء إلى مظهرٍ من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده ، والتّنبيه إلى آيةٍ من آياته جلّ وعلا المتمثّلة فى كون كلٍّ من الزّوجين سكناً للآخر وقد قال تعالى[1] : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة ، إنّ فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون ﴾ .

إنّ الجزئيّة الكريمة تنزّل كلاً من الزّوجين بالنّسبة للآخر منزلة الثياب والملابس الّتى تدفع عن صاحبها أذى القُرّ ولفح الحَرّ وما شاكلهما من أنواع الأذى والقذى . وإنّ كلاً من الزّوجين بمثابة الملابس الّتى تصون المرء ويتجمّل بها ويتزيّن . وهل يستطيع أحدٌ سوى الزوّج أن يشبع رغبة زوجه ويطفئ غلّته ويروى ظمأه ؟ وهل يستطيع أحدٌ سوى الزّوج أن يعفّ زوجه ويحميه من غوائل الطّرق ويصونه بفضل الله تعالى من حبائل الشّيطان ؟ إنّ الزّواج هو الطّريق الطبيعىّ للوصول إلى المجتمع العفيف الطّاهر النّظيف . وإنّ فى الجزئيّة الكريمة حثاً ضمنيّاً للأمّة الإسلاميّة على تطبيق أمر المصطفى ﷺ أفراد هذه الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين بأن يتناكحوا ويتناسلوا فإنّه عليه الصّلاة والسّلام مباهٍ بنا الأمم يوم القيامة . ونحن فى غنًى عن الحديث عن العقاب السّماوىّ الّذى ينزله ربّ العزّة بالمنحرفين عن سواء السّبيل وإنّ من أوضح الأدلّة على ذلك ظهور بعض الأمراض المستعصية على العلاج انتقاماً منه جلّ وعلا من الزّناة ومن الّذين يعملون عمل قوم لوطٍ عليه السّلام .

وبالإضافة إلى هذه الاستعارة اللّطيفة الّتى تتجلّى فى استعارة اللّباس لكلٍّ من الزّوجين

---

(١) سورة الرّوم ٢١

بالنّسبة للآخر، نحن نتبيّن علاقةً لطيفةً خفيّةً بين الجزئيّتين الكريمتين . لقد جاءت استعارة اللّباس بعد ذكر ليلة الصّيام . ومع أنّ اللّباس يحتاج إليه الإنسان فى الحرّ والقرّ ، فى النّهار لدفع أذى الحرّ ، وفى اللّيل لدفع أذى البرد ، فإن الحاجة إلى اللّباس ليلاً لارتباط البرد به بأكثر من النّهار ، تكاد تتقدّم الحاجة إلى اللّباس نهاراً فى بعض الأحايين ، وإنّ من وسائل الارتياح ليلاً الاستدفاء باللّباس بنوعيه ، المحسوس متمثّلاً فى الملابس ، والمعنوىّ متمثّلاً فى الزّوج الّذى جعله الله تعالى سكناً لزوجه ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى بين الزّوجين مودّةً ورحمة ، وذلك سرّ عمارة هذا الكون وبنائه فسبحانه جلّ وعلا القادر على كلّ شىء ، الّذى لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء . ومن البيّن أنّ استعارة اللّباس اللّطيفة فى الجزئيّة الكريمة تجىء إثر القول ﴿ الرّفث إلى نسائكم ﴾ الّذى يجرى فى الجزئيّة الكريمة السّابقة مجرى الكنايات اللّطيفة . ومن البيّن كذلك حظّ كلٍّ من الزّوجين الموفور من كونه لباساً للآخر يصونه معنويًّا ، بل إنّ دور الزّوجة هنا يكاد يكون متقدّماً على دور الزّوج إذ تقدّم الجزئيّة ذكر الزّوجة وذلك فى القول ﴿ هن لباس لكم ﴾ وكأنّ الجزئية الكريمة إثر تقريرها حاجة كلٍّ من الزّوجين للآخر تكاد تقرّر أنّ حاجة الرّجل لزوجه هى الأشدّ وهى الأقوى فليرع الأزواج هذه النّعمة الكبرى وليشكروا الله تعالى نعمه وآلاءه الّتى لا تُحْصى وفى مقدّمتها نعمة الزّوجة السّكن والمودّة والرّحمة وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ ولهنّ مثل الّذى عليهنّ بالمعروف ، وللرّجال عليهن درجة ﴾ وقال[2] : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ .

وإنّ فى التّلميح بحاجة الزّوج الأشدّ لزوجته فى الجزئيّة الكريمة قوّةً إضافيةً للتّبيين والتّعليل للجزئيّة الكريمة السّابقة الّتى تضمّنت خطاب هؤلاء الأزواج فى معرض الامتنان عليهم وكأنّ المعنى : أحلّ لكم أيّها الأزواج فى المقام الأوّل الرّفث إلى نسائكم لشدّة حاجتكم إليهن وضعفكم أمام الميل إليهنّ والرّغبة فيهنّ والحاجة إلى الافضاء إليهنّ .

وهذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا

---

(١) سورة البقرة ٢٢٨ (٢) سورة البقرة ٢٣٧

عنكم ﴾ تقرّر علم الله تعالى ، الّذى ليس للزّمن علاقةٌ به مطلقاً ، بأنّ المسلمين المخاطبين الّذين خفّف عنهم فأحلّ لهم ليلة الصّيام الرّفث إلى نسائهم ، كانوا يختانون أنفسهم فيتّصلون جنسيّاً بزوجاتهم ليلة الصّيام بعد العشاء أو بعد النّوم ، كما تبيّن الجزئيّة الكريمة فضل الله تعالى على المسلمين ، وقد تمثل ذلك الفضل فى تجاوز الإحلال لهم الرّفث إلى نسائهم إلى التّوبة عليهم والعفو عنهم . ونستطيع أن نفهم التّوبة بأنّها التّخفيف من الله تعالى وأن نفهم العفو بأنّه تجاوز الله تعالى عن الذّنب وترك العقوبة عليه . كما أنّا نستطيع أن نفهم التّوبة هنا بأنّها توبة العباد وإنابتهم إلى بارئهم جلّ وعلا وقبول الله تعالى تلك التّوبة . ومعروفٌ أنّ من شروط التّوبة الإقلاع عن المعصية والنّدم عليها والعزم على عدم العودة إليها . وكأنّ هؤلاء المؤمنين قد تابوا إلى الله تعالى فقبل جلّ توبتهم وإنابتهم وعفا عنهم ما فرط من ذنوبهم . وبهذا يتبيّن أنّ فضل الله تعالى على المؤمنين قد شمل التّخفيف عنهم بإحلال الرّفث إلى نسائهم ليالى الصّيام ، كما شمل قبول توبتهم والعفو عنهم . وكانّ المعنى القريب للتّوبة بمعنى الأوبة إلى الله تعالى هو الأكثر ملاءمةً باعتبار التّخفيف الّذى يصحّ أن يفيده القول : ﴿ فتاب عليكم ﴾ قد فُهِم فحواه من صدر الآية الكريمة .

وهذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ تجمع فى نسق بين الغرض القريب الّذى من أجله كان التّخفيف من الله تعالى والتّوبة والعفو ، وبين الغرض البعيد . أمّا الغرض القريب فهو الاتّصال بالزّوجة ، وأمّا الغرض البعيد فهو الحصول على الذّرّيّة . وفى التّعبير عن الغرض القريب الغاية فى الأَهَمِّيَّة فى حقّ السّوىّ من الناس تجىء الكناية اللّطيفة : ﴿ فالآن باشروهنّ ﴾ والمعنى أنّه منذ نزول الآية الكريمة على المصطفى ﷺ وعلمهم بها يستطيع كلّ زوج ليلة الصّيام أن يجعل بشرته ملاصقةً لبشرة زوجته . ومن المعلوم أنّ هذا النّوع من الالتصاق يرتبط به حصول كلٍّ من الزّوجين من الآخر على كلّ ما يشتهى ، وسبق أن تبيّنا أنّ لفظة الرّفث جامعةٌ لكلّ ما يرغب الزّوج من زوجه . ولمّا كان ثمّة غايةٌ أبعد وغرضٌ أسمى من مجرّد التقاء البشرتين وما يقترن بهما ويتعلّق، وذلك هو وجود الذّريّة الّتى تحقّق الهدف الّذى من أجله خلق الله تعالى الإنسان بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له والّتى تحقّق بإذن الله تعالى وعد الحقّ

جلّ وعلا بأن يظهر دين الإسلام على الدّين كلّه ولو كره المشركون وكفى بالله شهيدا ، فقد كان ثمّة نصّ على هذه الغاية النّبيلة والهدف الأبعد : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ والمعنى أنّكم أيّها المؤمنون حينما تقضون شهواتكم من زوجاتكم عليكم أن تكونوا واعين للهدف الأبعد من مجرّد قضاء الشّهوة ، ساعين من أجل تحقيق الهدف ألا وهو الحصول على الولد فقد أمرنا المصطفى ﷺ أن نتناكح وأن نتكاثر فإنّه ﷺ مباهٍ بنا الأمم يوم القيامة . وقد عبّر عن الولد بأنه ما كتب الله سبحانه وتعالى لنا بأن نحصل عليه من البنين والبنات وما يسبق به القضاء في اللّوح المحفوظ . وكأنّ هذا القول : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ ينبّه كلّ مسلمٍ لله ربّ العالمين إلى وجوب الرّضا التّامّ بما كتبه الله تعالى له في اللّوح المحفوظ وما قسمه من بنين وبنات فلا مجال لغير الرّضا التّامّ بما وهب الله سبحانه وتعالى وإلاّ كانت النّظرة جاهليةً على نحو ما بيّنت الآيات الكريمات من سورتي النّحل[١] والزّخرف[٢] وقد جاء في سورة الشّورى[٣] قوله تعالى : ﴿ لله مُلْكُ السّماوات والأرض يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذّكور . أو يزوّجهم ذُكْراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ، إنّه عليمٌ قدير ﴾ .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تحدّثت أوّلاً عن إحلال الله تعالى للأزواج الإفضاء ليلة الصّيام إلى النّساء من بين الأمرين اللّذين نزلت الآية الكريمة فيهما ، دليلاً على أهمّيّة هذا الأمر في حق المسلمين وحاجتهم الشّديدة إليه . وإنّ فضل الله تعالى الكبير على عباده ليتجلّى في تحقيق الغرضين معاً وتلبية الطّلبين . وها هي ذي الآية الكريمة تتحوّل إلى الحديث في الأمر الثاني . قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ إنّ في إحلال الرّفث إلى النّساء ليلة الصّيام إيحاءً ضمنيًّا بإحلال الأكل والشّرب . وإنّ رحمة الله تعالى الّتي وسعت كلّ شيءٍ لتشمل عباده الّذين لقوا من الامتناع بعد النّوم أو العشاء ليلة الصّيام عن الطّعام والشّراب عنتاً شديداً ، وها هي ذي الآية الكريمة تأمر المسلمين أمر إباحةٍ بأن يأكلوا ويشربوا اللّيل كلّه حتى يتبيّن لهم الخيط

---

(١) الآية ٥٨ ، ٥٩ (٢) الآية ١٧
(٣) الآية ٤٩ ، ٥٠

الأبيض والمراد به الفجر الثّانى الصّادق الّذى يستطير فيه النّور وينتشر فى الأفق ، وليس المراد به الفجر الأول الكاذب الّذى يستطيل فيه النّور ولا ينتشر ، حتّى يتبيّن لهم الخيط الأبيض الّذى يتجلّى فيه النّور خيطاً منتشراً ، من الخيط الأسود والمراد به ما يتعلّق بالخيط الأبيض المنتشر فى الأفق من بقايا فلول الليل المولّى والّتى تتجلّى فى هيئة ذلك الخيط الأسود العالق بالخيط الأبيض الّذى يشتّد بياضه على حساب ذلك الخيط الأسود المتلاشى المفارق إلى أن ينفجر نور الفجر انفجارا مُؤذِناً بذهاب اللّيل الأكيد ومجىء اليوم الجديد والصّبح الوليد .

ومن البيّن أنّنا بصدد الحديث عن اللّيل المولّى لمرّةٍ واحدة فى هيئة الخيط الأسود ، بينما نحن بصدد حديثين اثنين عن ميلاد اليوم الجديد ، فثمّة الخيط الأبيض المقابل للخيط الأسود والّذى يقوى عوده ويشتدّ وينتشر بُعْدُه ويمتدّ على حساب الخيط الأسود الّذى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وثمّة الفجر الّذى يقضى بنوره المنفجر على البقيّة الباقية من فلول اللّيل المولّى والّتى تجلّت أخيراً فى هيئة ذلك الخيط الأسود المختفى . وإنّ العناية بالفجر الوليد الجديد فى الآية الكريمة من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده الّذين سيصومون النّهار كى ينالوا فى اللّيل ما يحتاجون إليه من طعامٍ وشراب ، مظهراً من مظاهر إرادة الله تعالى بعباده اليسر لا العسر . وتلك الرّحمة وذلك العسر يعمّقهما مثل قوله ﷺ فى الحديث الّذى روته عائشة رضى الله عنها : لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فإنّه ينادى بليل ، فكلوا واشربوا حتّى تسمعوا أذان ابن أمّ مكتوم فإنّه لا يؤذّن حتّى يطلع الفجر . لفظ البخارى[١] وعن سهل بن سعدٍ رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : لا يزال النّاس بخير ما عجّلوا الفِطْر ، أى إذا تحقّقوا الغروب بالرّؤية أو بإخبار عدلين أو عدلٍ على الأرجح . زاد أبو داود : وأخّروا السُّحور[٢] .

وعلى غرار تبيين الآية الكريمة نهاية وقت الأكل والشّرب ليلاً ، وهذه النّهاية تعنى بداية الصيّام ، تبيّن الآية الكريمة نهاية الصّيام نهاراً ، وهذه النّهاية تعنى بداية وقت الإفطار شرعاً ، أكل الصائم أو لم يأكل ، وذلك فى القول ﴿ ثم أتمّوا

(١) تفسير ابن كثير ٢٢٢/١

(٢) عون البارى لحّل أدّلة صحيح البخارى ٤٣٩/٣

الصّيام إلى اللّيل ﴾ وإنّ حرف العطف « ثمّ » فى الجزئيّة الكريمة ، الدّال على التّعقيب مع التّراخى ، قوّةٌ للفسحة من الوقت الّتى يتمّ فيها الأكل والشّرب ليلاً ، تلك الفسحة من الوقت الّتى يفيدها القول : ﴿ حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ وتبدو مظاهر رحمة الله تعالى بعباده حينما نتبيّن الأكل والشّرب والفسحة من الوقت الّتى يتمّان فيها ، وحينما نقارن بين تعبير الآية الكريمة المعجز وبين تعبيرنا القاصر فى الدّلالة على أصل المعنى : وكلوا واشربوا ليلاً وصوموا نهاراً . إنّ الآية الكريمة تبيّن على وجه الدّقة البالغة بداية كلٍّ من اللّيل والنّهار ونهايتهما . وفى تبيين البداية والنّهاية تبيين لبداية الصّيام ونهايته . وإنّ القول : ﴿ ثمّ أتمّوا الصّيام ﴾ يتجاوز كلاً من الأمر بالإمساك عن الطّعام والشّراب ، ومن ابتداء الصّيام لأنّ كلاً منهما مفهومٌ ضمناً من القول : ﴿ حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ ويقرّر هذا القول كذلك إتمام الصّيام إلى اللّيل وهو الأمر الجديد المهمّ فى الموضوع . وقد بيّنت السّنّة النّبويّة المطهّرة على وجه الدّقة بداية اللّيل الّتى تعنى نهاية النّهار وذلك بغروب الشّمس . قال ﷺ : إذا أقبل اللّيل من هٰهنا وأدبر النّهار من هٰهنا فقد أفطر الصّائم . وقال رسول الله ﷺ : لا يزال النّاس بخيرٍ ما عجّلوا الفطر . وروى ابن حبّان والحاكم من حديث سهل بن سعد : لا تزال أمّتى على سنّتى ما لم تنتظر بِفطْرها النّجوم[1] .

ولمّا كان الاعتكاف بإجماع العلماء قُربةً من القُرَب وكان النّاوى للاعتكاف المقدم عليه على علمٍ تامٍّ بما سوف يقوم به تقرّباً إلى الله تعالى بمحض اختياره فقد شاءت العناية الإلٰهيّة الّتى أحلت ليلة الصّيام الإفضاء إلى النّساء ، أن تمنعه من مطلق الرّفث من جماعٍ وكلّ متعلّقاته كالقبلة واللمسة وما إليهما . إنّ إقبال المعتكف الكلّىّ على الله تعالى وإعراضه التّامّ عن النّساء من متعلّقات الاعتكاف الّذى يرتبط بشهر رمضان المبارك شهر القرآن الكريم فى العادة . وقد أجمع أهل العلم على أنّ من جامع امرأته وهو معتكفٌ عامداً لذلك فى فرجها أنّه مفسدٌ لاعتكافه . وأجمعوا على أنّ المعتكف لا يباشر ولا يقبّل .

---

(١) عون البارى ١/٤٣٩

وهكذا يتبينّ أنّ صيام رمضان لمّا كان ركنًا من أركان الإسلام فإنّ ربّ العزّة البرّ الرّحيم بعباده أحلّ لهم الرّفث إلى نسائهم . ولمّا كان الاعتكاف قربةً من القُرَب ونافلةً من النّوافل وكان المعتكف فى شهر رمضان أو فى غيره مقبلاً على لزوم المسجد بمحض إرادته أملاً فى ثواب الله تعالى وطمعاً فى رحمته ، فإنّ الآية الكريمة تنهى عن أدنى اتّصالٍ بالزّوجة . وإنّ فى الاختلاف بين التّعبيرين إظهاراً لرحمة الله تعالى فى أقوى صورها وإظهاراً لمسئوليّة المعتكف الّتى ينبغى أن يراعيها . إنّ المناسبة حينما كانت مناسبة فضل من الله تعالى ومنّ كان ثمّة النّصّ على لفظة الرّفث الّتى تعنى أساساً منتهى ما يمكن للزّوج أن يصل من زوجه : ﴿ أحلّ لكم ليلة الصّيام الرّفث إلى نسائكم ﴾ وإنّ المناسبة حينما كانت متعلّقةً بالمسئوليّة الّتى ألزم المعتكف بها نفسه اختياراً قبل الاعتكاف وبمعرفة مدى وفائه بالتزامه كان ثمّة النّهى الصّريح عن مجرّد المباشرة ، وهى الكناية اللّطيفة الّتى تعنى فى أبسط الصّور تلامس البشرتين وفى أعماقها الإفضاء . إنّ النّهى هنا كان عن المباشرة وليس عن الرّفث ، وإنّ ذكر المباشرة يقترن بالابتداء أساساً ، وإنّ ذكر الرّفث يقترن بالانتهاء أى الإفضاء أساسًا . وإنّ المعتكف منهىٌّ عن مجرّد الابتداء فكيف بالانتهاء . قال تعالى : ﴿ ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ .

ولمّا كانت الآية الكريمة متضمّنةً للعديد من الأحكام الّتى ينبغى تطبيقها والمعالم الّتى ينبغى مراعاتها والحدود الّتى ينبغى عدم تخطّيها فقد كان فى الآية الكريمة النّصّ على تلك الحدود الّتى ينبغى الالتزام بها . قال تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ والمعنى : تلك الأحكام والأوامر والنّواهى الحدود الّتى حدّها الله تعالى فلا ينبغى تعدّيها والحواجز الّتى وضعها فلا ينبغى تخطّيها . ومن البيّن أنثمّة نهياًعن مجرّد الاقتراب من حدود الله تعالى فضلاً عن الانتهاء إليها أو تعدّيها وقد جاء فى موضع آخر من هذه السّورة الكريمة قوله تعالى[1] : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظّالمون ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ٢٢٩

وتنصّ الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة : ﴿ كذلك يبيّن الله آياته للنّاس لعلّهم يتّقون ﴾ على أنّ ربّ العزّة كما بيّن فضلاً منه جلّ وعلا ومناً الأحكام المتعلّقة بالصّيام وما فيها من يسرٍ وتخفيف ، يبيّن آياته للنّاس كلّ النّاس ، لعلّهم يتّقون . وحينما تكون لفظة النّاس شاملةً للمؤمنين يكون ترجّى ارتقائهم إلى التّقوى بفضلٍ من الله تعالى وعونٍ من أقصر طريق . وحينما تكون لفظة النّاس شاملةً لغير المؤمنين يكون ثمّة التّرجّى ذاته ولكنّ الطّريق المؤدّى للتّقوى فى حقّ هؤلاء طريقٌ طويل ، ويعتبر اعتناق هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده أولى الخطوات للسّير فى هذا الطّريق الصّحيح . وفى كلتا الحالتين ترجّى التّقوى قائمٌ ووارد ، وفى كلتا الحالتين تبدأ الآيات بمعنى العلامات الواضحات والحجج البيّنات بآى الذّكر الحكيم ، وتشمل وراء ذلك كلّ آيةٍ فى هذا الوجود دالّةٍ على الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد . وقد قال الشّاعر الحكيم[1] .

وفى كلّ شىءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحد

وتختم الآية الكريمة بترجّى التّقوى على عادة القرآن الكريم فى ختم آية التكّليف بترجّى التّقوى ، وفى ختم آية التّخفيف بترجّى الشّكر . وتختم الآية الكريمة الأخيرة من آيات الصّيام بما ختمت به أولى الآيات الكريمات من ترجّى التّقوى . ونستطيع أن نفهم من النّصّ على التّقوى ، فى نهاية أولى الآيات وآخرها ، دور الصّيام فى الوصول بفضل الله تعالى وعونه إلى مرحلة التّقوى الّتى تكاد تكون الوجه الآخر للإحسان ، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك .

الآيــة رقــم (١٨٨)

قال تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقاً من أموال النّاس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ .

---

(١) البيت فى البداية والنّهاية لابن كثير ٢٣٢/١٠ منسوبٌ لأبى العتاهية وهو الرّاجح وفى تفسير ابن كثير ٢٤/١ لابن المعتزّ .